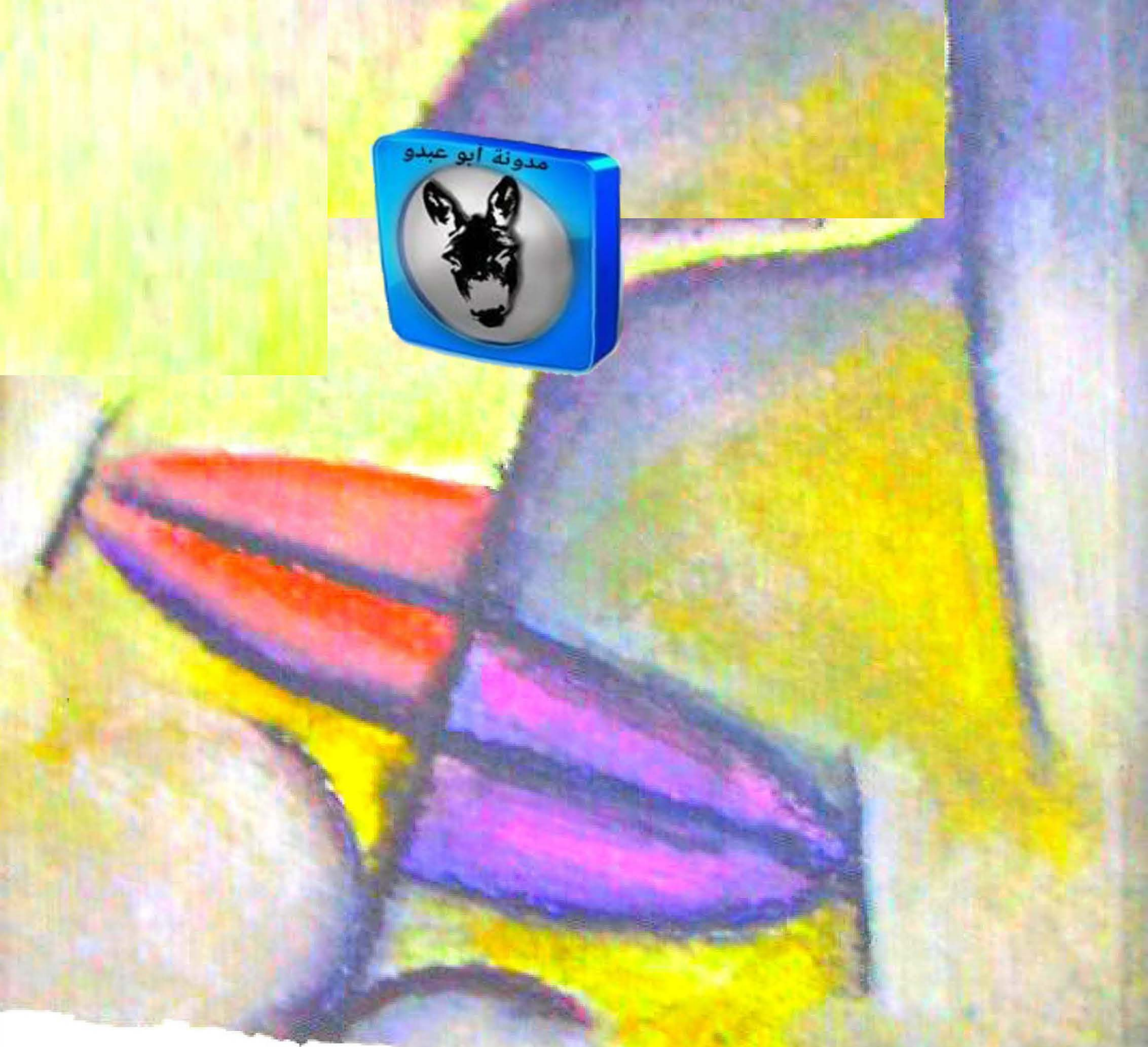


مي التلمساني

A CAPPELLA

أكابيلا

رواية



مي التلمساني

كاتبة مصرية تقيم حاليا في كندا

صدر لها:

- نحت متكرر (قصص)، دار شرقيات، 1995
- دنيا زاد (رواية)، دار شرقيات، 1997
- خيانات ذهنية (قصص)، هيئة قصور الثقافة، 1999
- هليوبوليس (رواية)، دار شرقيات، 2000
- للجنة سور (يوميات)، دار شرقيات، 2009

ترجمت "دنيازاد" إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية، وحصلت على جائزة عوليس لأفضل رواية أولى في حوض البحر المتوسط من مهرجان باستيا، فرنسا 2001، كما حصلت الرواية نفسهاعلى جائزة الدولة التشجيعية 2002

وترجمت "هليوبوليس" إلى الفرنسية 2002

أكابيلا

A Cappella

دار الشروق

أكابيلا *A Cappella*

رواية

مي التلمساني

الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار شرقيات

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي.
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٢٣٩٠٢٩١٣، ٢٣٩٣١٥٤٨
sharqiyat2010@yahoo.com
لوحة الغلاف: هشام نوار
غلاف: أحمد كامل

التلمساني، مي.
أكابيلا A Cappella: رواية/ مي التلمساني. - ط ١.
- القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
١٥٢ ص؛ ٢٠×١٤ سم.

رقم الإيداع ١٩٥٥٥/ ٢٠١١

تدمك ISBN 978-977-283-373 6

رواية - العنوان ديوي ٨٦٣.

أكابيلا

A Cappella

رواية

مي التلمساني

دار شرقيات

(١)

فِي غرفة المكتب ملصقات صغيرة وكبيرة لأفلام شاهدت بعضها وأجلت مشاهدة بعضها الآخر إِلَى أجَل غير معلوم. يعجبني الملصق فأشتريه حَتَّى لو لم أشاهد الفيلم. أعلقه عَلَى الحائط فور شرائه فيبقى هُنَاك عدة أسابيع ثم أُنزله بعد زهق وأضع مكانه ملصقًا جديدا. الأفيشات القديمة أبرمها وأضعها فِي أنبوب من الكرتون الْمُقَوَّى لحفظها من التراب والأفيشات الجديدة الَّتِي تزين جدران المكتب تظل محتفظة بلمعانها حَتَّى تغطيها طبقة تكاد لاَ تُرَى من الأتربة وتعرجات القدم. الملصقات الكبيرة تهبط من خط التقاء الحائط بالسقف حَتَّى تصل حافتها السفلى إِلَى مستوى الرأس تقريبًا. لكي أراها جيدًا، يجب أن أبتعد قليلاً عن الحائط وأنظر إِلَى أعلى. أما الملصقات الصغيرة فتتجاور فِي أماكن متفرقة من الغرفة، فِي كتف الباب، أو فِي مستطيل صغير عَلَى عمود بجوار النافذة.

أجلس عَلَى مقعد المكتب كعادتي مع بداية كلّ نهار. أجرب أن أهدأ بعد معركة النوم والاستيقاظ. مكاني المفضل هُوَ المقعد أمام الكمبيوتر، أزحف نحوه بخطى ثقيلة فِي الصباح أجرجر النعاس فِي أذيال قميص النوم وأهبط فوق شلتته الرخوة مثل طائر عجوز حط عَلَى عشه. فجر الأحد، الجو غائم فِي الخارج ينذر بأمطار موسمية، واليوم عطلة. ليست لديّ رغبة فِي العمل. لاَ كتابة، لاَ ترجمة، لاَ شيء. أسترخي أمام الكمبيوتر المغلق وأتردد بين فتحه والعبث

بمحتوياته، والاستعانة بالورق والقلم لخربشة أي كتابة تصلح للتأمل أو للنشر أو لصندوق القمامة.

عَلَى الحائط المقابل للمقعد، نافذة تطل عَلَى شجرة تَعرَّت أغصانها، تتشكل عَلَى خلفية من سماء رمادية داكنة، كأننا قاربنا الدخول فِي الليل. عَلَى الحائط المتعامد مع حائط النافذة، أفيش أسود اللون، تهبط من أعلاه مشنقة تحتل ثلثي المساحة تقريبًا. المشنقة مصنوعة من حبال خشنة مجدولة بإحكام تتطاير منها شعيرات خفيفة من القش التقطتها عين الكاميرا وكبَّرَتها عدة أضعاف. عنوان الفيلم مكتوب تحت المشنقة بحروف بيضاء مهتزة وتحته بقليل اسم المخرج بحروف أصغر، وتحتهما سطران يحويان تفاصيل أخرى لاَ يهتمُّ بِهَا أحد عن المنتجين والعاملين فِي الفيلم مكتوبة بحروف لاَ متناهية فِي الصغر.

أضيء الأباجورة وألتفت من جديد صوب النافذة. أي صباح هذا الَّذِي يضطرني إِلَى إضاءة النور! السماء تضفي عَلَى أغصان الشجرة الساكنة لونًا شبحيًّا وأفيش الفيلم ينعكس بالكامل عَلَى الزجاج. عيناي معلقتان بما أرى ولكنِّي أعجز لوهلة عن تفسيره. أرى حبل مشنقة معلَّقًا عَلَى غصن شجرة لكن عقلي يرفض أن يكون مَا أراه حقيقة. اختفت خلفية الأفيش السوداء. ذابت فِي ضوء الخارج المعتم، والمشنقة تنتظر أن أفك شفرة وجودها المفاجئ هُنَاك، عَلَى غصن أعزل أمام نافذتي. السماء تغطيها غيوم تتحرك نشطة صوب الشمال، يجتازها ضوء من آن إِلَى آخر فيبهت انعكاس الصورة عَلَى الزجاج وتكاد المشنقة تسقط عن الغصن، وحيدة خفيفة، بِلاَ خطيئة وبلا جسد.

رغم عتمة الصبح الغريبة أشعر بفرح خاص لأن الشتاء ولى ببرده القارس وصباحاته الكئيبة وجاء الربيع بهوائه المنعش ووعوده

المرحة. يزيدني فرحًا أن هواجس الفشل وعذابات التردد لم تزرني منذ زمن، رغم أني داومت عَلَى الاستيقاظ مع ساعات النّهار الأولى والاستغراق فِي تأمل الكون النائم بِلاَ مبالاة باتت تلازمني. كأني قد نسيت عايدة وما سببته لِي من تعاسة فِي الشهور الأخيرة السابقة عَلَى وفاتها. نسيت ملامح وجهها ونبرة صوتها ولم يتبق منهما فِي ذاكرتي سوى زاوية معينة للوجه، رنين ضحكة مقتضبة أو كلمة غاضبة قالتها بلكنتها المعهودة. كانت أقرب صديقاتي إِلَى قلبي لكنها لسبب مجهول -لاَ تزال تساورني بشأنه الظنون- قررت أن تقطع علاقتها بِي وتسقطني من قائمة أصدقائها. حدث هذا قبلٍ وفاتها بأشهر قلائل، فِي ظروف وملابسات لاَ تسعفني الذاكرة حَتَّى اليوم لترتيبها زمنيًّا واستخلاص معناها وجدواها.

كان لعايدة أربعة من الأصدقاء الْمُقَرَّبِين اعتبرتُهم مجرَّد أفراد فِي شلة تحتمي بِهَا من الوحدة. يقدم لَهَا كلّ منهم خدمات من نوع خاص تقول إِنها لاَ تستطيع الاستغناء عنها. أسامة زوجها الأول وكاتم أسرارها، يعمل مهندسًا مرموقًا فِي شركة تعدين وهو من علمها تذوق الأوبرا وإِتقان الإِنجليزية. حسام الاسم المستعار لآخر حبيب فِي حَيَاة عايدة، رجل أعمال أنيق ومثقف، راهن عَلَى الاستقرار وفشل الرهان وأحب عايدة لفترة قصيرة ثم هجرها عندما تبين لَهُ أن صفقة ارتباطه بِهَا ستكون خاسرة. كريم روائي معروف تربطه بعايدة علاقة ملتبسة لاَ تخلو من تبادل الخدمات عند الحاجة وتحكمها مشاعر التواطؤ بينهما فِي الحب وفي الفن. وعادل طبيب باطني وكاتب فِي أوقات الفراغ يحب عايدة فِي صمت وأقصى مَا يتمناه أن ترضى عَنْهُ وتعطف عليه. أسامة وحسام ليسا متزوجين، كريم وعادل متزوجان وزواجهما عاطل من البهجة رغم الأولاد والاستقرار المادي. فِي بداية صداقتنا، لم يكُن فِي محيطها من

يهمني باستثناء عادل الَّذِي كان طبيبي الخاص ثم أصبح صديقًا مشتركًا. كنت أصادق أصدقاءها من أجل الحفاظ عَلَى صداقتي بِهَا حَتَّى قررَت دون سابق إنذار وبلا تفسير مقنع أن تكف عن الحديث معي. كانت تهوى الاختفاء والابتعاد عن الناس من حين إِلَى آخر لكنها هذه المرة أصرَّت عَلَى الصمت والعزلة، ثم ماتت أيضًا دون سابق إنذار، موتًا لاَ يسبقه مرض وَلاَ يبرره تقدم فِي العمر وَلاَ يزيد من دراميته فعل انتحار. عندما طالت غيبتها عني، تركتها حَتَّى تهدأ وعاودت الاتصال بِهَا. أنكرت نفسها، ثم أرسلت إِلَيَّ إيميلاً طويلاً تشرح فِيهِ بلغة ركيكة وبإسهاب غريب أهمية أن أكف عن التعامل معها بغباء.

وردت كلمة "غباء" فِي رسالة عايدة مَا يقرب من ثلاثين مرة، بتنويعات مختلفة وفي مواضع لاَ تحتمل وجود الكلمة أصلاً. اتصلت بِهَا، تركت رسالة عَلَى الأنسرماشين. كتبت لَهَا إيميلاً، ولم يصل إِلَيَّ رد. اتصلت بأسامة فقال إنها ذهبت للاستجمام فِي الشاليه الَّذِي يملكه قريبًا من البحر. لم يكن يعرف مَا حدث بيننا، وبدا أنه غير مهتم بارتباكي وقلقي عليها. عوَّل كل شيء عَلَى غرابة شخصيتها، نفورها المفاجئ من الناس، أنانيتها المعهودة، عجزها عن تفسير مشاعرها إِلاَّ لو اضطرت إِلَى ذلك اضطرارًا. قال إن تليفون الشاليه مغلق منذ يومين. وقال إنها ستعود قريبًا، لن تحتمل العزلة.

عدت لتأمل الأفيش. كنت قد نسيت عايدة وذكرتني بِهَا علامة الموت المنعكسة عَلَى زجاج النافذة. لم تكن لدي قدرة عَلَى القطع بحزم بمعنى هواجس الموت والفقد الَّتِي أرسلها وسواس الصبح إِلَى مراكز التفكير فِي رأسي. كما أنِّي لم أكن أشعر بإجهاد لاَ فِي جسدي وَلاَ فِي تفكيري، كنت أشعر بنشاط من نوع غريب لأن هواجس الفشل وعذابات التردد لم تزرني منذ زمن ولأن غضبي

عَلَى عايِدة ومنها كان قد خفَّت حدَّته مع الوقت. كانِ ذهني يقفز من صورة إِلَى صورة ومن فكرة إِلَى فكرة ويصوغ كلّ هذا فِي كلمات أحدِّث بِهَا نفسي وأعلِّق بِهَا عَلَى الصور والأفكار ثم أعود وأغيِّرها أو أصحِّحها لتبدو أكثر ملاءمة لما يتوارد عَلَى ذهني من خيالات، والحديث الدائر فِي رأسي بِلاَ رأس وَلاَ ذيل ينمو ويتشكل مثل حيوان خرافي هبط كالهُلام عَلَى غرفة المكتب واحتلها بأثاثها ونافذتها وملصقاتها وكتبها.

كنت قد رأيت عايدة للمرة الأولى فِي حفل دعاني إِليه عادل وكانت تعتذر إِلَى شخص لاَ أعرفه عن تصرف بدر منها وتلحُّ عليه أن يقبل أسفها، والرجل مستاء من تصرفها ومن إِلحاحها فِي الاعتذار لأنه لاَ يجد مبرِرًا للتصرف فِي المقام الأول، ولأنه يشعر بالحرج من الاعتذار الَّذِي لم تكن لديه رغبة فِي قبوله فِي المقام الثاني. بعد انصراف الرجل، رأيت عايدة تسحب نفسًا من سيجارتها ثم تنفخه بغيظ فِي الهواء وهي تقول لواحد من أصدقائها إِن هذا الرجل أغبى رجل قابلَته فِي حياتها. فهمت فِي مَا بعد أن هذه الصفة كانت جامعة شاملة لكلّ الصفات الَّتِي لم تستطع عايدة أن تعبِّر عن كرهها لَهَا وَلاَ أن تفسِّرها. الغباء كان يعني أشياء كثيرة فِي قاموس عايدة اليومي، بداية من التهاون فِي تنفيذ مطالبها وانتهاءً بالعجز عن فهمها بالحَدْس ومحاولة فرض تفسير موضوعي لكلّ مَا يبدر منها أو يصدر عنها من أفعال أو أقوال.

عندما لاحظ عادل أنِّي أتابع من بُعدٍ حديثها الصاخب مع الرجل واعتذارها المرفوض إِليه ناداني وقدَّمَني باسمي وصفتي المهنية فابتسمت هِيَ بأدب وقالت: اسمي إِيدا... تقدري تعتبريني artist. نطقتها بلكنة وهي تلوِّح بيديها الاثنتين فِي حركة عكسية، اليد اليمنى تنطلق من ناحية الكتف اليسرى نحو الفضاء حاملة

سيجارة كادت تنطفئ وكأس نبيذ شبه فارغة، واليد اليسرى تلوِّح فِي الاتجاه المعاكس. فِي اللحظة ذاتها كان الذقن والرقبة يمتدان إِلى الأمام قليلاً فيما يتراجع الرأس إِلَى الخلف وهي تنهي جملتها المقتضبة بحركة مسرحية أربكتني وجعلتني أبتسم بود كأني أدرك بالضبط مَا تقصد بكلمة "فنانة".

أمام الناس، يناديها أصدقاؤها "إِيدا" لتدليلها. أما فِي مَا بينهم، فينادونها عايدة. ينطقون "إِيدا" بنبرة قديمة تشبه نبرة أفلام الأبيض والأسود. لكنة الاسم الأوربّية تبدو من وجهة نظرهم أكثر دلالاً، تضع الأصحاب فِي مكانة خاصَّة وتشعِرهم بالانتماء إِلَى طبقة غير الطبقة، إِلَى عصر غير العصر. "إِيدا" فِي حضرة جمهور بعينه تتعمد أن تقول "أوكيه" و"فاين" و"أولريدي"، بدلاً من "قشطة عليك" و"ماشي الحال" و"خِلصِت". تفضل أن تستخدم التعابير الشعبية فِي سياقات حميمية لاَ أمام عامَّة الناس، وتقول إِنها كلمات تخصُّ قاموس القربى والمُقرَّبين. اللكنة الإِنجليزية فِي المقابل ترفعها طبقيًّا، تحميها وتحمي أصدقاءها من تشكك الناس فِي قيمة الاختلاف، من استخفافهم بأي إِنسان يدعى الخروج عن القطيع من دون أن يبرر شذوذه بسلطة المال أو الشهرة أو المظهر المتعجرف.

ظلت عايدة طوال حياتها بِلاَ عمل ثابت وماتت قبل أن تكمل الأربعين. تزوجت وطُلِّقت وتزوجت مرة ثانية وأنجبت ثم طُلِّقت واستقر الولد فِي حضانة أبيه واستقرَّت عايدة فِي شقَّة تركها لَهَا أسامة زوجها الأول بعد أن طُلِّقت للمرة الثانية. الزوجان السابقان يزورانها من آن إِلَى آخر ويمنحانها بعض المال، بعض الوقت والاهتمام، حفاظا عَلَى العشرة ولأسباب أخرى تتعلق بفكرة الذكور عن التملك. الولد يزورها أيضًا ولكنه لاَ يبقى طويلاً، تلاعبه وتمنحه هدية وتتركه لتصنع فنجان قهوة وتعود لتجده قد غادر

البيت، هبط وحده السلم ولحق بأبيه الَّذِي ينتظر فِي السيَّارة. تطل من النافذة فتجد الْبَوَّاب يتحدث مع زوجها، والولد يركب السيَّارة، والمارة يمرون، والمحلات مفتوحة والهواء ساري وكلّ شيء عَلَى مَا يرام.

بعد فنجان القهوة، تشربها ببطء وبرشفات قصيرة، وسيجارة الصباح، تنفث دخانها فِي وجه الجيران من شرفة الطابق الثالث، تخرج عايدة من البيت. تطل عَلَى العالَم من أعلى البنطلون الجينز والبلوزة الضيقة والحذاء المريح، تستقبل هواء الطريق بثقة الفاتحين وتحتمي من أنظار العابرين خلف نظارة سوداء عريضة ماركة بيرسول. كانت نحيفة تميل إِلَى السمرة، شعرها ناعم ومموج ومنفوش يهيم بسواده كلّ من يعرفها وتسمح فقط للأقرباء بلمسه، جمالها خليط من الملامح اللطيفة والجسد اللين والشخصية الآسرة. تجتذب مشيتها المعتدة بنفسها نظر الناس فِي الطريق، وتردعهم نظاراتها العريضة ومشيتها المنتظمة فيغضون البصر بعد حين.

فِي الصباح، تفكِّر فِي الاتصال بِي عَلَى الهاتف. المكالمة تدوم مسافة خروجها من الشارع الَّذِي يعرفها فِيهِ كلّ سكانه، وصولا الى الطريق العمومي الَّذِي يشعرها بالراحة كأي امرأةَ تهوى التخفي. لا يتسع الوقت أبدًا لكي تجري مكالمة الصباح من البيت. من الشارع، تصبح المكالمة قصيرة، ويأتي صوتها متهدجا بفعل المشي. كأنها تسرع، وأعرف معظم الوقت أنها ليست فِي حاجة إِلَى الإسراع، لا عمل ينتظرها، فقط زيارة لمحل هُنَا أو لصديق هُنَاك. حَتَّى يمر النَّهَار ويبدأ العصر، أحلى الأوقات فِي أجندة اليوم، الوقت الَّذِي تهدأ فِيهِ هواجسها وتهبط لدرجة أقرب للطبيعية، وتنشط فِي أثنائه أفكارها فتروح تضع الخطط وتستعرض المشاريع الَّتِي تنوي القيام بِهَا فِي المستقبل وتؤجل القيام بِهَا فِي الحاضر وتتخيل إمكانية

الحصول عَلَى بعض المال بِلاَ مجهود كبير لو أنها انتهت من هذا المشروع أو ذاك فِي الوقت المناسب لتسديد جزء من الديون والسفر فِي رحلة للاستجمام. وهكذا من فكرة لفكرة ومن دوامة لدوامة حَتَّى يأتي موعد الخروج والسهر.

تقول عايدة عَلَى الهاتف إِنها ستمر ببيتي فِي المساء. وأقول أهلا وسهلا. لكنها فِي أغلب الأحيان لاَ تمر. تنسى، أو تتناسى. تريد أحيانًا أن تضمن وجودي بالبيت، أن تتأكد أنها لن تلتقي بِي مصادفة فِي مكانٍ لاَ تريدني أن أراها فِيهِ بصحبة أصدقاء مشتركين. تؤكد عَلَى الموعد خِلاَل النَّهَار مرة، مرتين، وَلاَ تأتي. أحيانًا أنتظرها طوال المساء، وأحيانًا أخرى أنتظرها قليلاً ثم أغامر بالخروج وحدي أو بصحبة زوجي. لاَ نلتقي عايدة إِلاَّ نادرًا، فهي تتجنب الأماكن المعتادة وسط المدينة، وعندما تكتشف مكانا سريا جديدا، تدعو إِليه الْمُقَرَّبِين أولا. كنت أعرف أنها تضعني فِي دائرة أوسع من دائرة الْمُقَرَّبِين رغم مرور سنوات عَلَى صداقتنا، ورغم إِلحاحها فِي أن تستمر هذه الصداقة حية. لم تكن هذه المعرفة تزعجني كثيرًا، فقد كانت نفسي تحدثني بأني الأقرب عَلَى أي حال، لأسباب ستتأكد لِي بعد وفاتها.

عندما كانت تحددٍ موعدا وَلاَ تأتي فِيهِ لم أكُن أبحث عنها، كانت هِيَ من تبحث عني، تريد أن تعرف إِن كنت قد انتظرتها أم لاَ، وأين قضيت السهرة ومع من، تقارن بين جودة الصحبة فِي الحالتين، تفرح لأن أصحابها أكثر جاذبية وذكاء وخبرة بالحَيَاة من أصحابي الكئيبين. وتجاهر بذلك كأنه نوع من الانتصار. بعد يومين أو ثلاثة، تعاود الاتصال من الشارع، لاَ تعتذر أبدًا عن موعدٍ أخلفته، مكالمة سريعة كالمعتاد لأنها مشغولة جدًّا اليوم ولأنها تفكر أن نلتقي فِي المساء لو توفر لَهَا الوقت. أحيانًا يتوفر الوقت، لأسباب

خارجة عن إرادتها. مرة اتصلت بِي بعد خروجها من البيت، وحمل صوت أنفاسها بحةً لم أعهدها. أصابني قلق مباغت وتوتر لم أستطع تفسيره. شعرت أنِّي فعلا مهتمة بِهَا، وأنها تعني لِي الكثير، بدون تحديد واضح لهذا "الكثير". مجرَّد إحساس مبهم عن أهمية وجودها فِي حياتي، عن أهمية احتياجها لِي. قالت إنها فِي ورطة وتريد التخلُّص منها بمساعدتي. قالت إنها ستحكي لِي كلّ شيء حال وصولها إِلَى بيتي، أما الآن فهي تريد مجرَّد وعد بأني سأقف معها وأساعدها. مهما حصل؟ أجبتها: طبعًا يَا عايدة، مهما حصل. سألتها عن التفاصيل ورفضت الحديث عَلَى الهاتف. قالت إن الموضوع غبي، لاَ يستحق.

عندما دخلت كان وجهها شاحبا وشفتاها متهدلتين قليلاً. تركنا زوجي وراح ليضع الماء في غلاية الشاي. قالت بلاَ تمهيد إنها حامل من زوجها الثاني. وجلست عَلَى الكنبة وأشعلت سيجارة. أردت أن أفتح ستائر غرفة المعيشة فأشارت بحركة يدها ألا أفعل، أضأت نور الأباجورة وجلست عَلَى مقعد قريب. كانت تريد التخلُّص من الجنين دون علم منه، هُوَ عازف عن الزواج منذ طلاقهما، وهو فوق ذلك متدين سيرفض فكرة الإجهاض ويلح فِي ردها لعصمته. أردت أن أسألها متى حدث ذلك، كيف حدث ذلك، ولكني استسخفت الأسئلة. هِيَ أمور تحدث، لسنا بحاجة إِلَى تكرار البديهيات، وَأَنَا بطبعي أجيد الانصات وَلاَ ألح فِي السؤال.

قالت إن الوقت غير مناسب، وهي لاَ تريد العودة لزوجها، ليس بتلك الشروط. قالت إن الطفل سيعطلها عن العمل (فكرت: أي عمل؟) وقالت إنها لاَ تأمن لأحد غيري ليساعدها. قلت إني أعرف طبيبا وأستطيع اصطحابها. أجابت: سأذهب وحدي ولكن ينقصني المال. وهل هذه مشكلة؟ أعطيك مَا تريدين يَا عايدة. سكتت برهة

أنهت خلالها سيجارتها وأطفأتها بحركة عصبية. كنت من موقعي أتأمل ملامح وجهها الساكن فِي ضوء الأباجورة وهي تقترب ثم تبتعد عن الطفاية وأسرح فيما تقول وفي تغير ملامح وجهها عندما تكون فِي ورطة. أكتشفت أن لَهَا أنفا دقيقا حادا يزداد جمالا من زاوية البروفيل وذقنا ينكمش كُلَّمَا سكتت عن الْكَلاَم واستغرقت فِي ذاتها. فكرت هل هِيَ فعلا فِي ورطة؟ هل ينبغي أن أجلس جوارها وأربت عَلَى كتفها، أم أكتفي بالنظر والتعاطف؟

لم تمهلني وقتا للتفكير، فقد عادت لصوتها طبيعته المرحة وقالت وهي تنهض: أوكيه، نروح البنك؟ لم تنتظر جوابا، خرجت من دائرة الضوء المحيطة بالكنبة والأباجورة ودخلت فِي دائرة العتمة الموصلة للممر المؤدي إِلَى المطبخ. تبعتها وذهني مشغول بزوال الألق عن أنفها وذقنها فِي ضوء الممر الباهت وتغير مزاجها من النقيض المضطرب للنقيض المتهافت على الحياة. أسكتت صفارة الغلاية وصبت الشاي وشربناه ونحن نثرثر. كانت مستعجلة كعادتها، لم تتركني أفطر، ألحت أن نخرج بسرعة، قالت سنأكل مَعًا فِي محل البيتزا القريب من البنك، وطلبت أن أخفي الأمر عن زوجي، وعن زوجها السابق صاحب الجنين المفترض. لم تنبس بكلمة شكر، تلك الكلمة لاَ يصح أن تقال بين الأصحاب. كانت مزهوة بثقتي فِيهَا، وبالانتصار مرة أخرى عَلَى كلّ الأسئلة الغبية الَّتِي تجنبت طرحها والتي لم تكن مستعدة للإجابة عنها عَلَى أي حال.

(٢)

خرجنا للتسوق بعد البنك وبعد البيتزا. لم تكُن تَرغب فِي العودة لبيتها، كانت تبدو سعيدة بصحبتي، تؤكد ذلك بِلاَ كلمات، تضع ذراعها فِي ذراعي وتلتصق بِي مثل طائر واهن وأعزل، تسألني رأيي قبل أن تخطو داخل المحل وتنتظر أن تنهي السيجارة قبل دخوله خوفا من إِشعال الحرائق. تتعب من اللف وتطلب أن نجلس فِي أقرب مقهى وتلح فِي محاسبة الجرسون من مالها. ثم تسترجع نشاطها وتعود للمشي، تدخل المحل وراء المحل، تشترِي أشياء لاَ تحتاج إِليها، وتفرح بالنظر داخل الأكياس من وقت إِلى آخر.

دخل علينا العصر، وزوجي يلحُّ عَلَى الهاتف أن أعود إِلَى البيت وعايِدة تلحُّ أن ندخل محلاً آخر، للمرة الأخيرة. وَأَنَا فِي دوَّامة اللف أشعر بالتراخي المصحوب بتعب التسوُّق، أحمل كيسًا وأفرح بمحتوياته كأنِّي عايدة. أنسى أنها فِي أزمة، أنسى كيف بدأ اليوم بحدوتة الحمل وحاجتها إِلَى مصاريف الإِجهاضِ، أتذكر أن مَا أنفقَته اليوم أنفقته من مال العملية الَّذِي اقترضَته مني وبدَّدَت ثلثه، وأنها لاَ تردُّ مالاً استدانته أبدًا، لأنها ببساطة لاَ تستدين، هِيَ فقط تأخذ وتعطي، فِي الحقيقة تأخذ أكثر مِمَّا تعطي، وتبرر ذلك بأن الاستدانة نوع من الغباء، تقصيِّها من قاموس التعاملات بين الأصدقاء، وترد الدين بطرق أخرى كثيرة ليس من بينها حسبة الفلوس.

كلتانا تحتقر المال عَلَى طريقتها، وكلتانا لاَ تكفُّ عن التفكير فِيهِ لأسباب مختلفة. عندما تحتاج إِليه عايدة، تطلبه أو تأخذه، تحصل عليه بأي وسيلة. عندما أحتاج إِليه، أحاول الاستغناء عَنْهُ، وأفضِّل لو استطعت العمل فِي مقابل الحصول عليه. لاَ أدري أينا تحمل عقدة المال أعمق من الأخرى، أعرف فقط أنِّي لاَ أطيق أن يطلبه أحد وَلاَ أمنحه إِياه، وأن كرامتي تمنعني من طلبه أو المطالبة بِهِ. أقول لنفسي إِني أعمل كيلا أحتاج إِليه، وتقول عايدة إِني أحتاج إِليه لأعمل. تسألني إِن كان زوجي يعتبرني مسؤولة منه ماليًّا، وعندما أجيب بالإِيجاب تردُّ: خلاص...ريلاكس. ترفض أن تسمع أي تفسير يخصُّ رغبتي فِي الاستقلال المادي أو ضرورة هذا الاستقلال لأي امرأة... تقول: مفيش مبرِّر للشغل. وأسمعها تضحك وتردف: لم نعُد جواري لكم. وهي تقصد العبودية لنظام العمل لاَ للرجال.

كانت عايدة فِي أَثْنَاءِ شرودي قد اختفت وراء تل من الملاءات والكوفيرتات المرصوصة فِي أكياس من البلاستيك السميك، قامتها القصيرة لاَ يظِهر منها سوى شعرها الهائش وكتفيها المستديرتين. كانت تبتعد عني، وكان عليَّ أن أخترق المحل لألحق بِهَا، عيناي معلقتان بما يظهر منها كلَّمَا تقدمت صوبها. أرى جزءًا من شعرها تارة، جزءا من كتفها وذراعها تارة أخرى، تظهر وتختفي وسط أكوام البضائع والممرات وفجوات الأرفف كأنها تبحث عن شيء وَلاَ تجده. لفت انتباهي نوع من ستائر الحمام مصنوع من الدانتيل فتوقفت أمامه ورحت أختبر طراوة القماش وأقلبه بين يدي. كان ظهر الستارة من البلاستيك الرقيق ووجهها من الدانتيل السنتيتيك وملمسها فخمًا كأنها ستارة صالون.

لمحت عايدة عند زاوية قسم الديكور فِي عمق المحل. لم ترني لكنِّي كنت أراها من بعيد وأحرص أن لاَ تغيب عن نظري. يبهرني الدانتيل فِي ستارة الحمام وأتردد فِي دفع ثمنها الباهظ. وبينما أَنَا فِي تردُّد وحساب، تفكيري يصوِّر لِي ردَّ فعل زوجي الرافض لأيِّ حركة صرف زائدة عن الحاجة فِي البيت، ظل بصري معلَّقًا بعايدة فِي ركنها البعيد وعقلي يقول: لو كانت مكاني لاشترتها عَلَى الفور. انتبهت لأن حركتها الهادئة فِي الْمَكَان لم تكن حركة المتفرج العادي، كانت حركة متحفزة رغم هدوئها الظاهر، ممزوجة بشدَّة خاصَّة فِي الرأس والعنق وانتصاب غريب فِي الكتفين، وتربُّص. توقفت أمام قفص كبير من المعدن يحتوي عَلَى عدد من البضائع الرخيصة والمخفضة. استندت إِلَى القفص بكلتا يديها، ثم انحنت كأنها تتفحص شيئًا داخله. أخرجت من القفص علبة متوسطة الحجم تشبه علبة صابون حمَّام فاخر ووضعتها بسرعة فِي حقيبة يدها ثم وضعت فوقها الإيشارب الَّذِي تلفه حول عنقها. ابتعدت عن الْمَكَان بخطًى بطيئة وغابت عن نظري. غادرت مكاني بالدفع الذاتي ولمحتها مرة ثانية تسير نحو باب الخروج.

لم يرَها أحد غيري. كانت وحدها، وحدها تمامًا، لم تتلفَّت حولها، لم تراقب الحركة فِي المحل، لم تتأكد أن أحدًا لاَ يراها. مضت بثقة وهدوء نحو خزينة الدفع ومنها نحو باب الخروج. فِي أَثْنَاءِ لحاقي بِهَا شعرت بخجل لأني شاهدة عَلَى حادثة سرقة بطلتها صاحبتي، وزاد خجلي لأني قررت فِي اللحظة ذاتها أن ألوذ بالصمت وأمتنع عن سؤالها عن الشيء الَّذِي خبَّأته فِي حقيبة يدها. لحقت بِهَا عند باب المحل، لو صفرت الصفارة ستكون الفضيحة، لكن عايدة خطَت خارج المحل بِلاَ تردد، وتبعتها وَأَنَا أشك فِي مَا رأته عيناي. سألتها عمَّا اشترته فقالت: حاجات للبيت. فتحت الكيس

وظهر فِي قاعه مفرش سفرة ملون. زاد الحمل كيسًا آخر، وضعَت الأكياس الصغير منها داخل الكبير واستوقَفت سيَّارة تاكسي وتركَتني فجأة عَلَى وعد بمكالمة تليفونية، غدًا أو بعد غد. بدا كأن النهَار انتهى هكذا بالنسبة إِلَى عايدة، وأن الليل قد بدأ. تركتها تمضي دون محاسبة، دون سؤال، وعدت إِلَى البيت وقد استغرقتني الأفكار.

رحت أسترجع تفاصيل المشهد وأنفي عن نفسى مشاعر الخجل الَّتِي سيطرت عليَّ وكبحتها لتجنب الإحراج. خوفي من إغضاب عايدة وثقتي بأنها ستكذب وتعاتبني عَلَى عدم ثقتي بِهَا أو أنها ستقلب الموقف لصالحها وربَّمَا خاصمتني لتعاقبني عَلَى شكي فِيهَا، منعني من الاتهام والعتاب والمواجهة. بعد قليل تَحوَّل الخجل إِلَى استغراب وفضول، وأفضى الفضول إِلَى غضب ثم هدأ الغضب وتسلل الشكّ ليستقر فِي نفسي وينخر فِيها بدافعٍ من ضمير حي ظل يقظاً مضطرباً جزءًا من الليل وحَتَّى اقتراب الفجر.

أخذت أفكِّر فِي كلّ الأشياء الَّتِي ضاعت منِّي منذ سنوات، يعود ذهني لتصوُّرها وتصوُّر هيئتها آخر مرة رأيتها فِيهَا كأنها أشياء منقطعة عن سياق وجودها، تتوالى على عقلي مثل معروضات ثمينة تم تصويرها عَلَى خلفية سوداء استعدادًا لوضعها فِي كتالوج أحد المتاحف. كانت القائمة تطول كُلَّمَا تقدم الليل وتكثف الظلام، تضمُّ كلّ الأشياء الَّتِي اختفت بِلاَ تفسير، المعروف منها والمنسي، مَا اتهمتُ الخادم بسرقته وما اتهمتُ نفسي بتضييعه، الخاتم الذهبي ذا الفصوص الحمراء، الطقاطيق الأنتيك الموضوعة عَلَى الباهو فِي الصالون، رزمة النقود الَّتِي تبخرت من درج الكومودينو، الأفلام والكُتب وأشرطة الموسيقى والمناشف الصغيرة وزجاجات العطر وأمشاط الشعر الملوَّنة والملاعق المصنوعة من

الفضة والتماثيل الخزفية وأدوات الزينة وألعاب الأطفال وقطع الملابس الداخلية المستوردة وبضع دولارات وعملات قديمة. فكرت فِي أصدقائنا المشتركين، ومواقف مشابهة عشناها مَعًا وتعجبنا لضياع الشيء دون أن ننتبه. نقول: كان هُنَا، ونتعجب: الله! راح فين؟ وعايدة تقول ريلاكس... دلوقت يبان. كلّ شيء وأي شيء، ضاع منّا لأننا أغبياء، لأننا لم ننتبه.

لوهلة تصورت أنِّي لاَ أعرف عايدة، أو أنها ليست صاحبتي، بدت مثل شخص غريب اعترض طريقي برهة قصيرة من الزمن ثم اختفى وراء ركامٍ من الأشياء الضائعة. كنت أعرف أنها كاذبة محترفة، وأضيفت إِلي تلك الصفة صفة السرقة، واكتشفت أن هذا فِي ذاته يبهرني ويجتذبني إليها بشكل غريب كأن هذا الجانب الجديد من شخصيتها رغم عِلاته يعدني بمغامرة مثيرة. كأنِّي الوحيدة فِي هذا العالَم الَّتِي سمعت الصوت القادم من عمق سحيق وهو يستغفل الكلّ أقرباء وغرباء، ويعلن انتصاره عَلَى الملأ. كيف لم أنتبه لهذا الصوت من قبل؟ أسمعه بوضوح الآن وهو يقرر أن الكلّ غبي ويستثني من الكلّ عايدة. صوت مكتوم، خال من النغم، يسخر ويستهين ويصر.

عَلَى أنِّي لم أشعر برغبة فِي محاسبتها فِي أي لحظة من لحظات التفكير والأرق اللذين سيطرا علي تلك الليلة، بل كنت أستعيد ذكرياتي معها بانبهارٍ كأنها شخصية فِي رواية، وكأني أنتظر نهاية الرواية بشوق وترقب. شوق إِلَى معرفتها والتقرب إِليها ومشاركتها سرَّها أضيفت إِلَيه مشاعر أخرى متضاربة من الشكّ والريبة، كأنها لم تعُد صديقتي عندما لم أعد أصدقها. لكن الشَّكّ لم يمنعني من محبتها وطلب القرب منها، والعجيب أنه أضاف نكهة جديدة إِلَى علاقتنا فِي الشهور التَّالِية لحادثة السرقة، نكهة نزق

واستخفاف بالأخلاق وبشروط الصداقة الحقيقية كما كنت أتصورها. فِي تلك الليلة وجدت نفسي منساقة وراء لعبة الصداقة المنقوصة كأني لاعبة أكروبات تمشي عَلَى حبل مشدود، طرفه الأول فِي يد عايدة وطرفه الثاني فِي يد الظروف. ظل هذا الحبل يهدهدني حَتَّى نمت قُبَيل الفجر وعلى وجهي ابتسامة رضا. كانت آخر فكرة تحدثني بِهَا نفسي أني كائن غريب الأطوار وأن أطواري لاَ تختلف عن أطوار عايدة وأننا لهذا وذاك لسنا شخصين عاديين، لسنا مثل الناس نصحو وننام عَلَى نفس الحقائق، بنفس الإيقاع. قالت لي نفسي إننا نصلح لأن نكون بطلتين فِي رواية وإن صداقتنا تستحق لأنها أبدا لن تكتمل.

نمت عَلَى هذا الخاطر نوما عميقًا وصحوت عليه منتشية بعد ساعات قلائل كأني تأخرت عن موعدي مع عايدة. ذهبت لزيارتها فِي ظهر نفس اليوم. وضعت إصبعي عَلَى جرس الباب ولم أتركه حَتَى فتحت. كانت تعرف بذلك أن الطارق واحد من الأصحاب فَلاَ تحتاط فِي الملابس أو الزينة. جرجرت قدميها إِلَى الداخل ووقعتْ مثل كيس القطن عَلَى أقرب كرسي. كانت المائدة مغطاة بالمفرش الجديد والأكياس الَّتِي اشترتها بالأمس عَلَى حالها، لم تفتحها بعد. علبة الصابون الَّتِي رأيتها تضعها فِي حقيبتها لم تكن علبة صابون، كانت علبة شمع تحتوي عَلَى أربع شمعات حمراء عَلَى هيئة قلوب كبيرة تفصل بينها شرائح من البلاستيك المقوَّى. قالت خذيها، لاَ أحتاج إليها. التفتُ إليها وابتسمت. سألتها وَأَنَا أضع علبة الشمع جانبًا: تشربي شاي؟ لم أنتظر ردًّا، كانت زيارتي غير متوقعة وكانت عايدة مُنهَكة من سهرة قضتها بالأمس فِي بيت عادل وكان مزاجها متعكرًا.

عدت أحمل صينية الشاي وشرائح توست بالزبد ومربى البرتقال. انتقلنا إِلي الشرفة المطلة عَلَى حديقة البيت الخلفية. شربنا الشاي وتحدثنا قليلاً. قالت إِن زوجة عادل تعاملت معها بفتور طوال السهرة، وإِن أسامة لم يأتِ لأنه مسافر. فين؟ قالت فِي الشاليه، معه صاحبته الهولندية. دخنت سيجارة ثم سيجارة أخرى. لم تسألني عن سببِ الزيارة وتركتني بعد قليل لتأخذ دُشًا. كان لقاؤنا قصيرًا، بعد الدُّش اختفت فِي غرفتها نصف ساعة وعندما خرجت كانت فِي كامل زينتها، تحمل حقيبة سفر صغيرة، قالت ستذهب فِي رحلة، رُبَّمَا طبَّت عَلَى أسامة فِي الشاليه، وعندما رأتني أستنكر رغبتها فِي التطفل عليه وعلى صديقته قالت خِلاص، أروح أشوف أهلي. أغلقت الباب خلفنا بعنف وغابت عني عدة أيام وعندما عادت لم تتصل بِي، اتصل بِي أسامة وأخبرني أنها مريضة.

فِي هذا اليوم، بدأت رحلة البحث فِي شَقَّة عايدة عن كلّ الأشياء الَّتِي ضاعت مني عَلَى مدار سنوات صداقتنا. كنت متأكدة أني سأجد مسروقات تملأ الشقّة، وكلما وجدت شيئًا يبدو غاليًا، شككت أنه مسروق. بحثت عن شواهد وثيقة عَلَى صدق حدسي ومشهد السرقة الوحيد الَّذِي شاهدته بعيني يُلِحُّ عَلَى ذهني ويعود ليؤكد كُلَّمَا ساورني شك أن مَا رأيته لم يكن وهمًا، كان حقيقة. لم أجد سوى أشياءَ بسيطة تخصُّني لكني لم أتذكر أنها أخذتها دون علم مني، كان من الممكن أن أكون قد نسيتها هُنا... إِيشارب رخيص وأشرطة سي دي وكتب مهداة إِلَيَّ ومرصوصة ضمن كتبها وتمثال فضي صغير لفارس من القرون الوسطى دقيق الصنع (كنت أهديته إِلَى كريم عند صدور رواية لَهُ بعنوان "متاهة" ورُبَّمَا قرر هُوَ أن يهاديها بِهِ) ومقلمة ألوان تشبه مقلمة كان ابني يستخدمها منذ سنوات فِي المدرسة الابتدائية. كنت أبحث بنهم وهمة كبيرة كُلَّمَا وانتني

الفرصة، وعلى مدار أيام وأسابيع لم أجد شيئًا يُذكر وَلاَ دليلاً قاطعًا عَلَى أشياء تخصني من الممكن أن تكون عايدة قد اصطفَتها لنفسها.

ثم لاَ أدري كيف حدث ذلك وَلاَ كيف واتتني الجرأة، لكن البحث -مثل كل بحث- أفضى بعد قليل إِلَى السرقة. شعور مُلِحٌ يفرض عَلَى الباحث عن شيء لاَ يجده أن يعثر عَلَى شيء لم يكن يبحث عَنْهُ. ولأن كلّ بحث يحمل فِي ثناياه وعدًا بالسرقة فقد قررت فِي أَثْنَاءِ بحثي عن مسروقات متخيَّلة أو افتراضية أن أسرق شيئًا عينيًّا وملموسًا. كان هذا الشيء هُوَ كرَّاس اليوميَّات، وجدته فِي درج خزانة الملابس. كان كُرَّاسًا قديمًا نسبيًّا، يرجع تاريخه إِلَى سنوات تسبق تاريخ استعارتي لَهُ. فِي البداية اعتبرتها استعارة لأَنِّي قررت إعادته والبحث عن غيره كلَّمَا سنحت الفرصة. غير أني احتفظت بكلّ مَا وجدت عَلَى سبيل الاحتياط، يراودني إحساس غامض أنِّي سأحتاج إِلَى كرَّاسات عايدة فِي مَا بعد أو أنها ستحتاج إليَّ. قررت منذ لحظة عثوري عَلَى الكُرَّاس أن ألعب دور حارسة يوميَّات عايدة. لم يكن الدور منوطا بأحد غيري من أفراد الشِّلَّة. ثم تأكد هذا الدور بعد انقطاع علاقتي بِهَا وازداد رسوخا بعد وفاتها.

لم أكفَّ عن زيارتها زيارات مفاجئة منذ ذلك اليوم، بسبب وبلا سبب. دخلت عالَمها من باب خلفِي كأنِّي أستكشف بستانا مهجورًا وساحرًا. لاَ أدري إن كان الشكّ قد ساورها بخصوص سرقة كُرَّاس اليوميَّات أم لاَ، لكنني داومت عَلَى البحث، وصار التفتيش فِي بيتها عن أي شيء، أي دليل عَلَى كذبها أو عَلَى إدمانها السرقة هوايتي المفضلة. لم تتحدث معي عن ضياع كُرَّاس اليوميَّات الأول، رُبَّمَا خمَّنت أنِّي وراء اختفائه، ورُبَّمَا لم تشأ أن تسألني حَتَّى لاَ أعرف أنها تكتب يوميَّات مثل المراهقات. كنت أعرف أنها تحافظ عَلَى صورة المرأة المجربة بشكل طفولي يجتذب كلّ من

يعرفها، رجالاً ونساء، كأنها لاَ تقصد أن تكون الطفلة الَّتِي تتمناها سرًّا، أو كأنها امرأة نسيت أن تنضج.

عثرت عَلَى كراسين آخرين فِي مَا بعد. كانا مخفيَّين بعناية فِي أماكن مختلفة فِي غرفة نومها وفي الصالة، عَلَى عكس الكرَّاس الأول الَّذِي وجدته فِي قاع درج الدولاب مع عدد من أشرطة الكاسيت المُهمَلة والفواتير القديمة. هل تركتهما خصيصًا فِي أماكن مكشوفة عَلَى أمل أن يعثر عليهما واحد من الأصحاب ويعرف الحقيقة؟ ولكن أي حقيقة؟ أسأل نفسي هذا السؤال محاولة تبرير الوهم الَّذِي سيطر عليَّ شهورًا كاملة، وهم معرفة حقيقة عايدة. قرأت أكثر من كرَّاس ولم أعثر عليها تلك الحقيقة، كنت فقط أتلذذ بالتحول لسارقة كي أشبه عايدة، وقاموس الأخلاق الَّذِي تربيت عليه يتهاوى أمام عيني مع كلّ صفحة أتلصص فِيهَا عليها، مع كلّ كلمة أدَّعي بعد قراءتها أنها توصلني إِلَى الحقيقة الَّتِي يمكنها أن تبرِّر قربي من عايدة والتي لم تفلح فِي الظهور عَلَى السطح رغم محاولاتي المستمرة فِي التنقيب.

الحقيقة الَّتِي أعرفها الآن هِيَ أن الابتعاد عن عايدة أو تجاهلها لم يكُن ممكنًا، بل أصبح مستحيلاً بعد قراءة اليوميَّات ثم بعد موتها المفاجئ. صار حضورها فِي حياتي أكثر طغيانًا. حضور مدوِّخ مثل رائحة القهوة فِي الصباح الباكر، مستبدّ مثل مواء قطة تلد. اكتشفت أنِّي أحبها، صديقتي الكاذبة، السارقة، الأنانية، المدَّعِيَة. أحبها لأنها رغم شرورها هشة مثل سنابل القمح، غامضة مثل حقل فِي الليل. أبحث فَلاَ أجد سوى تلك السنابل تتمايل مع الريح، أصغي فَلاَ أسمع سوى حفيف الليل ورهافة أصواته.

بعد مرور سنوات عَلَى صداقتنا، لم تعُد عايدة صديقتي. لكنها عَلَى الرغم من فتوري التدريجي حافظت عَلَى خيط الصداقة مشدودًا

بيننا. كانت تعرف أنِّي أُحِبُّ وَلاَ أكره. أحب وأبتعد لو أردت، لكنِّي لاَ أكره. أصبحت عايدة هِيَ الصديقة الَّتِي لم أستطع أن أصادقها، وصاحبني بعد موتها شعور بعدم الاكتمال لم يغادرني حَتَّى اليوم. كأن الصداقة لم تكن ممكنة إِلاَّ خارج ميثاق الحب. كنت أحبها وأكره صداقتها، وكلما حاولت تفسير ذلك لنفسي فشلت وتراجعت عن قرار الانفصال النهائي. كانت قريبة إِلَى قلبي مثل شخصية فِي كتاب، أعود إِليها لأتأملها، لكنِّي أختنق فِي حضورها لفرط مَا تلاحقني عيوبها وزلاَّتها المتكررة.

كانت صفحات قليلة من كُرَّاس اليوميَّات تخصُّني. تشير إِليَّ مستخدمةً اسمي أحيانًا، وأحيانًا أخرى أعرف نفسي رغم غياب الاسم. تشير إِلَى حدث عشناه مَعًا. تتوقف عند حالة أو موقف أو عبارة قلتها. تعلق عليها، تسخر منها، تستشهد برأيي فِيهَا وتعتبره سليمًا. ذات مرة أطلقت عليَّ اسمًا مستعارًا، سمَّتني "ماهي"، وفي مرات أخرى لم تكن تشير إِلَى اسم بعينه لكنها حكت قصصًا لا تخصُّ أحدًا غيري. عرفت ذلك من تفاصيل صغيرة نثرتها هُنَا وهناك. رحت أقرؤها وأعيد قراءتها كأنِّي أراها تتجسد وتنمو وتتحول تحت نظري إِلَى فضيحة هائلة. كأن الكون كله يطل من فوق كتفي ويقرأ يوميَّات عايدة معي فيدرك أنها تتحدث عني وعن حكايتي. لم أغفر لَهَا رواية هذا الحدث بالذات، وتصويري بشكل مخالف للحقيقة، لم أغفر لَهَا أنها فضحت نقطة ضعفي، وأن رأيها المكتوب عني وعن زوجي كان نقيض رأيها المعلن الَّذِي كانت تجاهر بِهِ فِي حضوري مشيرة إِلَى انبهارها بصلابة علاقتنا الزوجية. أظنها كانت تسخر من تلك الزيجة، من ذلك الحب الَّذِي يربطني برجل هُوَ نقيض مَا كانت عايدة تتمناه فِي الرجال، لكن

صوتها كان يتلون ويتبدل كُلَّمَا جاءت السيرة، تقول بنبرة مخلصة "ربنا يخلليكو لبعض" وهي تعني "ربنا يهني سعيد بسعيدة".

أدركت من قراءة اليوميَّات أنها كانت كاذبة وهي تقول إِني صديقتها الوحيدة. كانت فِي الحقِيقة تكره صحبة النساء وعندما اختارتني كانت تريد أن تسرق مني الوقت والاهتمام اللذين تسمح بهما حدود الصداقة مع امرأة فِي مقابل اللقب الَّذِي خصتني بِهِ، لقب الصديقة الوحيدة. لم يبد منها مَا يدل عَلَى الخسة فِي علاقتنا لكن بعض مَا كتبته عني لاَ يصحُّ أن يوصف بغيرِ ذلك. لم أستطع أن أخفي خسَّتها عن زوجِي. أردته أن يعرف حَتَّى يربت عَلَى كتفي ويواسيني. ثار وقال "لاَ تلتقي بِهَا بعد اليوم". ثم هدأت ثورته وهز كتفه وانسحب من معركتنا. لم تكن معركته هُوَ، كانت معركتي أَنَا مع بدائل أخرى تصورت أنها ضرورية لسعادتي. وكان هُوَ قد أدرك أن ارتباطي بعايدة واحد من تلك البدائل.

أتذكر أول مرة قرأت فِيهَا قصة تخصني فِي اليوميَّات، صفحات قليلة لكني قرأتها عدة مرات غير مصدقة أنها تكتب عني، ومع كلّ قراءة ينقبض قلبي وتعاودني الرَّغبة فِي البكاء. كأنها خانتني، كأنها تعمدت الاعتداء عَلَى صداقتنا بقرار فردي، تركتني وحيدة فِي عزلتي ومضت وحيدة فِي عدوانها. تفاصيل صغيرة لاَ تخص أحدًا غيري، حلَّلتها، فصَّلتها، سخرت منها واحتفظت برأيِها الساخر سرًّا فِي كرَّاس. حافظَت عَلَى سرها وكشفَت سري. لكني فِي ثورة الغضب منها ومن نفسي نسيت أن أكرهها. وربَّمَا لم أنسَ، إِنما غفلت روحي عن محاسبتها. وقبل أن أقرر الابتعاد عنها نهائيًّا، قررت هِيَ أن تموت. رحلت وتركت تلك الغصة. تلك الكلمات. تلك النظرة الَّتِي طالعتني بين السطور ولم أستطع أن أجد لَهَا مبررًا أو

تفسيرًا. هل كانت نظرة تعاطف وحب أم نظرة تهكم وبغض؟ لن أعرف أبدًا. كما لم يعُد للمعرفة مبرِّر.

(٣)

بدأ النَّهَار كابيًا ثم أشرقت الشمس قُبيل الظهر. فرحت ومنَّيت نفسي بيوم رائق أقضيه وحدي فِي البيت، بِلاَ مسؤوليات وبلا عمل. قبل أن ينتهي النَّهَار، كنت قد نسخت فقرة من اليوميَّات فِي كُرَّاسي الخاص. اشتريته من مكتبة عريقة فِي وسط المدينة ودفعت ثمنه غاليًا. كان كُرَّاسًا سميكًا، مئتي صفحة مسطَّرة. الأسطر زرقاء والصفحات لاَ تشف والغلاف من الجلد النبيذي محفور عليه بماء الذهب زخارف نباتية. فكرت أن يكون هذا الكُرَّاس الأنيق مكانًا لتعديل وترتيب اليوميَّات، لعلها تصلح كتابًا أهديه إِلَى روح عايدة. تقول الفقرة الافتتاحية التي انتقيتها من الكراس: "الجلوس فِي الظل يريحني. كنتُ أفكر فيك طوال النَّهَار ولم أشعر إلاَّ وحرارة الشمس تلسعني. كنت فِي حديقة واسعة وكنت أتأمل الأزهار والأشجار مأخوذة. أخذَتني من نفسي وأعدتَني إليها. كنت معك فِي الحلم، فِي تلك الحديقة وارفة الأشجار، وكنت أسير فِي ممراتها تحت الشمس، عَلَى الرغم من الشمس، وحدي لكني معك. قدماي تعلوان عن الأرض قليلاً. قليلاً بما يكفي لتلامس يدي غصون الأشجار الدانية. وحدي فِي تلك الحديقة، وحدي والشمس. نور ونار وقلبي الَّذِي هدَّته المخاوف، وقلبك كما أعرفه يحنو عَلَى كعنقود عنب".

لاَ أدري مَا الَّذِي دفعني لاختيار تلك الفقرة مدخلا لليوميَّات. أخرجت الكرَّاس الأول من درج المكتب، تصفحته سريعًا واخترت بِلاَ تردد الفقرة السابقة. بدأت كتابتها فِي منتصف صفحة الكُرَّاس الجديد وتركت بقية الصفحة فارغة. بعد نسخها، فكرت أن أتوقف

عن عمل أي شيء آخر فِي أَثْنَاءِ النَّهَار. كانت كلمات عايدة تلفّني مثل هواء منعش، هواء مشبَّع برائحة عشب ويود كأني فِي بستان يُطِلّ عَلَى البحر. كلّ شيء ممكن وجائز وخفيف. أتأمل الكلمات وهو تطير وتحط مثل النوارس وأغمض عينَيَّ فتبلل شفتَيَّ حبات العنب.

كلّ تفصيلة تضاف إِلَى السابقة عليها تزيدني فضولاً ويأسًا. مَن هذا الحبيب الَّذِي تشير إِليه عايدة فِي يوميَّاتها؟ عندما قرأت اليوميَّات للمرة الأولى، لم أكن أهتم كثيرًا بمعرفة أسماء عشاقها، كنت أخمن بعضها، وكانت هِيَ قد كشفت لِي بعضها الآخر فِي أحاديث سابقة. فِي البداية، كنت أقرأ اليوميَّات لأفتش عن سبب يبرِّر احترافها للكذب ومحاولاتها المتكررة للسرقة. فِي مَا بعد، اختفى هذا الهاجس وحلَّت محلَّه هواجس أكثر تعقيدًا، تتصل بالعلاقة بين الكذب والسرقة والحب، وتلك الأشياء مجتمعة والكتابة. سلبتني إِعادة كتابة اليوميَّات من نفسي، كأنِّي منومة مغناطيسيًّا، أو كأننا صرنا نكتب مَعًا أَنَا وعايدة. نحلم بذلك الحبيب الغائب، بمعناه المطلق، بمعناه الخادع. تقرِّبنا منه أو تُبعِدنا عَنْهُ صورة غائمة ورائحة رطبة وملمس كملمس المُخمَل ناعم ومثير.

لعدة أيام تالية، بعد أن كان البيت يخلو من سكانه وتهدأ ضوضاء الواجبات المنزلية، كنت أصنع لنفسي كوب نسكافيه ساخنًا أشربه ببطء وَأَنَا أتأمل شاشة الكمبيوتر الناعسة. لن أفتحه عَلَى الفور، أقول لنفسي. سأفتحه بعد أن أُدوِّن فِي الكُرَّاسِ شيئًا من يوميَّات عايدة. كان الكمبيوتر محل عملي، ولم أكن أستخدم الإنترنت إِلاَّ عند الحاجة القصوى، للعمل أو لمراسلة بعض الأصدقاء. كان محرَّمًا عَلَى الجميع فِي البيت التعامل مع هذا الكمبيوتر فقد كان موضع أسراري وأسرار كثيرين غيري من

العملاء. تتلخص مهامُّ عملي فِي ترجمة الوثائق الرسمية من المنزل، أعمل لحساب عدد من مكاتب الترجمة المعتمدة فِي المدينة ويتم تبادل الوثائق والمعلومات المطلوبة عادة عبر الإنترنت. لم تكن بي حاجة إِلَى مغادرة المنزل إِلاَّ نادرًا، مرة أو مرتين شهريًّا لتحصيل مستحقاتي المالية من المكاتب. الترجمة كانت منذ تخرجي فِي الجامعة وسيلة سهلة ومضمونة للكسب ولم تكن تعوقني عن تربية الولد أو عن رعاية زوجي. عندما رسخ صيتي فِي سوق الترجمة المعتمدة بدأ أصحاب الشركات يطلبونني بالاسم وينتظرون دورهم لو لزم الأمر لتسلُّم النص المترجم أو مراجعة نص سبقت ترجمته ولم يرضَ عَنْهُ العميل. كنت أفتخر بهذا العمل بين صديقاتي وأفراد عائلتي الكبيرة، وكانوا يلجؤون إِلَيَّ للتأكد من صحَّة ترجمة قبل اعتمادها أو لترجمة شهادة أو عقد لم يسبق ترجمته، وأحيانًا كانت تلك الوثائق تحمل أسرارا يأتمنونني عليها، وثائق بنكية، عقد زواج سري، وصية تقضي بحرمان قريب أو زوجة من أموال مودعة فِي بنك أجنبي.

كان هذا عملي وكان يكفل لِي استقلالا نسبيًّا عن زوجي وعائلته الثرية. حَتَّى دخلت عايدة حياتي وطلبت مني طلبًا كان آنذاك غريبًا عليَّ، طلبت أن أترجم قصيدة كتبتها وتنوي قراءتها فِي أحد المراكز الثقافية الأجنبية. فرِحتُ لثقتها وخفت أن أخيِّب ظنها فعكفت يومين كاملين عَلَى ترجمة ثلاثين سطرا أرسلتها إِلَيها بالإيميل بعد تردد وطول مراجعة. كانت القصيدة سيريالية شديدة الغموض وبلا عنوانٍ. أرسلتها إِلَيها وانتظرت بجوار التليفون مكالمة منها لم تأتِ إِلاَّ فِي المساء، وجاء معها ثناء واحتفاء ودهشة قضيت أسبوعًا كاملاً فِي استساغتها واستعادة مذاقها الحلو مثل حبة بونبون تتحدى الذوبان. فِي مَا بعد ترجمت لَهَا عددًا من القصائد

ولكريم فصلاً كاملاً من رواية ومقالاً نقديًّا نشره فِي جريدة أجنبية، ثم ساعدتني عايدة فِي الحصول عَلَى عقود ترجمة مقالات صحفية لعدد من المجلات الفنية قبل أن ترشحني لترجمة كتاب فِي الفن نُشر فِي طبعة محدودة فِي دار نشر صغيرة يحاول أصحابها إحياء المدرسة السيريالية. عندما أغلقت دار النشر أبوابها احتفظت فِي بيتي بمعظم مَا تبقى من نسخ الكتاب إِلَى حين توزيعها عَلَى المعارف والأصحاب.

عنوان الكتاب "رحلة الخط والكتابة"، ويحكي عن تاريخ الخط فِي مختلف الثقافات من وجهة نظر جامع للأقلام والأحبار وأدوات الكتابة النادرة تقوده أسفاره لاكتشافات مذهلة ولقاءات مثيرة، مثل اكتشاف نوع من الحبر السري كانت قبائل المايا القديمة تستخدمه فِي المراسلات الحربية يظهر مرة واحدة للقارئ ثم يختفي إِلَى الأبد حال قراءته، ومثل لقاء صاحب الكتاب مع مؤسس أكبر مقلمة فِي العالَم يبلغ ارتفاعها ثلاثة طوابق وتحوي نحو مئة ألف قلم وريشة ومحبرة ابتكرتها البشرية منذ عصر البرونز حَتَّى العصر الحديث. ورغم حماستي الكبيرة إِلَى ترجمة الكتاب، فقد باءت التجربة بالفشل عند نشره حيث لم يلتفت إِليه أحد تقريبًا، لاَ النُّقَّاد وَلاَ المثقفون وَلاَ القراء العاديُّون، ولم يكتب عَنْهُ سوى واحد من أصدقاء عايدة بتكليف منها شخصيًّا ممتدحًا التفاصيل الغرائبية والأسلوب الشائق الَّذِي استخدمه الكاتب الرحالة لوصف رحلاته واكتشافاته.

بعد أن أغلقت الدار أبوابها، أصبح توزيع الكتاب بالجهد الذاتي مسؤوليتي الشخصية. كانت مسألة مضنية، من ناحية بسبب ثقل الكتاب وحجمه الضخم الَّذِي جعله لاَ يستقيم عَلَى أِيِّ رف مكتبة عادي، ومن ناحية أخرى بسبب ردود أفعال الناس كلَّمَا حاولت أن أعرض عليهم الكتاب أو أهدي إِليهم نسخة منه. كان البعض يتردد

فِي قبوله ظنًا أنه مقابل مال والبعض الآخر يتساءل بعجرفة إِن كان الكتاب يستحق الترجمة والنشر أصلاً، لأن مؤلفه مجهول ودار النشر متواضعة. عَلَى الرغم من إِعراض معظم الناس عن اقتنائه كنت أتسلى بمراقبة ردود أفعالهم عند تصفحهم الكتاب وأصنفهم وِفقًا لَهَا. رأيت لاَ مبالاة أمي المهذبة الَّتِي لم تكن تهتمُّ بقراءة الْكُتُب وتكتفي بالجرائد اليومية لكنها استقبلت الخبر بحفاوة وفرحت بحجم الكتاب وبالرسوم الداخلية وفرحت أكثر باسمي المكتوب عَلَى الغلاف تحت اسم المؤلف. ولاحظت شعور زوجي بالشك حين اكتشف أن الكتاب يكاد يخلو من الصور الفوتوغرافية وأن الرسوم ضرب من الخيال لاَ يدل بالضرورة عَلَى صِحَّة مَا ورد فِيهِ. وأدركت أن غيرة وحسد حماتي وهي تسأل عن قيمة الكتاب بالمال وأجيبها مضاعِفةً ثمنه الحقيقي لإِغاظتها هِيَ غيرة نساء لاَ أقلّ وَلاَ أكثر فلم تكن الثقافة مصدر ثراء فِي رأيها لكنها كانت مصدر فخر اجتماعي حسدتني عليه. أما الجيران فقد خافوا من تدبيسة الشراء ورفضوا حَتَّى التقليب فِي صفحات الكتاب، والأصحاب مثل أسامة وكريم وغيرهما من أفراد الشلّة شجَّعوني عَلَى الاستمرار وراحوا يلتقطون جملاً من الكتاب ليثنوا عَلَى ترجمتي لَهَا رغم أنهم باستثناء عادل نسوا النسخة المهداة فِي بيت عايدة واضطررت إِلَى أن أذكرهم بِهَا فِي لقاءات لاحقة.

من ناحيتي لم أندم عَلَى التجربة، لكنّي فضلت الانسحاب بهدوء من ترجمة الْكُتُب والعودة إِلَى ترجمة الوثائق والعقود ومحاضر الأقسام متناسية لحظة الفخر الأولى الَّتِي صاحبَت نشر الكتاب. أحببت فِي الكتاب رسومه الكثيرة، خصوصًا الرسوم الَّتِي تشبه رسوم موريتس أشر الجرافيكية مثل رسم برج الأقلام والمحابر بالأبيض والأسود. يشبه البرج كما تخيله الرسَّام متاهة

البيوت وهندسيتها الطاغية فِي أعمال أشر، تلك الَّتِي تظهر فِيهَا الأدوار متقاطعة بعضها مع بعض فِي مقاطع رأسية وأفقية تتداخل خطوطها وممراتها وسلالمها بشكل ينافي المنطق المعماري.

أحيانًا كنت أرى حياتي شبيهة بهذا البرج، مكشوفة من الداخل ومعقدة ومليئة بالاحتمالات، يفضي بعضها إِلَى بعض وَلاَ تؤدِّي سلالِمها إِلَى دور علوي أو سفلى بل تصل إِلَى باب مُغلَق أو فراغ مُطِل عَلَى هاوية. كانت أرفف الأقلام والمحابر مائلة فِي بعض المواضع، تكاد تسقط عنها محتوياتها لكنها تتحدى الجاذبية وتميل دون سقوط. وكانت فِي مواضع أخرى فِي رسوم أخرى تبدو مثل حراب وأسنان تنغرس فِي لحم الكاتب أو تنغرس فِي ورقة مُهمَلة مكوَّرة أسقطها الكاتب من ذاكرته إِلَى الأبد. أما رسوم الخط والكتابة فكانت أكثر سلاسة وانسيابية، تتراصُّ بمنطقية عقلانية هائلة فِي رسم اللُّغات الأوربّية، وتتطاير فِي الفضاء مثل لعب خوان ميرو الصغيرةِ لو كانِ الرسم يخص لغة من اللُّغات القديمة المهملة. كان الكاتب يعلِّق أحيانًا عَلَى تلك الرسوم قائلاً إنها منقولة من الواقع وأحيانًا أخرى يلوذ بالصمت فِي مَا يخص مصدرها فتزداد حيرة القارئ وتعلو قيمة الغموض فِي الكتاب درجة.

وضعَت عايدة كتابي فِي موقع الصدارة فِي مكتبتها بحيث يظهر الغلاف الخارجي كاملاً كأنه معروض فِي فترينة. عندما تُسأل عَنْهُ تقول إنه كتاب مُهدًى إليها ثم تفتح الصفحات الأولى وتقرأ بصوت عالٍ الإهداء الَّذِي كتبته للترجمة: "إِلَى من منحتني فرصة الاكتشاف وسلبتني راحة البال إِلَى الأبد، إِلَى عايدة". ثم تعرض الصفحة عَلَى السائل وهي تضع إصبعها قريبًا من اسمها المطبوع بحروف سوداء سميكة وتقول: كنت أفضِّل أن تكتب "إيدا".

(٤)

رشفتان من النسكافيه وَأَنَا أتأمل أفيش حبل المشنقة. فكرت أن أنزله عن الحائط وأضع مكانه أفيش فيلم "المرأة الَّتِي تشرب". كانت الخلفية السوداء وحبل المشنقة المتدلي من أعلى الأفيش يدقان عَلَى أعصابي يشيعان فِي الجو إحساسًا بالثقل والتعاسة. الأفيش الجديد على عكس القديم، مرسوم عَلَى خلفية بياضها شاهق. فِي منتصفه نقطة ماء كبيرة ظلالها رمادية تكاد تسقط فِي منتصف دائرة يصنعها سائل غريب يمتزج فِيهِ اللونان الفضي والأحمر، كأنه ماء أو زئبق أو خمر. دائرة ليست لَهَا حدود واضحة لأن الرسّام تعمَّد التخلص من الإناء الَّذِي يحتوِي عَلَى السائل. أما النقطة فمعلّقة فِي الفضاء، مثلها مثل حبل المشنقة، مجهولة المصدر.

فكرت وَأَنَا أتأمل الأفيش الجديد أن عايدة مدمنة كذب وسرقة، وأن إدمانها مثل إدمان الكحول، دليل صارخ عَلَى عدم الامتلاء. عَلَى الفشل فِي الامتلاء. الحمل والإجهاض مثلهما مثل السرقة وعدم المبالاة بالمسروقات وجهان لعملة واحدة، حركة دوارة من الشعور بالفراغ والرّغبة فِي الامتلاء تعقبها حالة من الرفض وعودة اختيارية إِلَى مرحلة الفراغ. أراحني هذا التحليل حين توصلت إِليه ثم سخرت من نفسي ومن انسياقي وراءه كأنه حقيقة لازمة. ثم انفصلت الفيشة الموصلة لكهرباء التحليل النفسي وساد البياض فِي رأسي. قمت واقتربت من زجاج النافذة. كان الطريق خاليًا من المارّة والسيّارات رابضة فِي صف مُوازٍ للرصيف وقطة رمادية

تعبر من ناحية الطريق المقابلة نحو بيتنا مَا لبثت أن اختفت عن نظري تحت تندة بلكونة الجيران.

وضعت يدًا فِي جيب البنطلون الخلفي وبيدي الأخرى رفعت فنجان النسكافيه البارد إِلَى شفتَيَّ. كانت هذه الوقفة أحَبَّ وقفات التفكير إِلَى نفسي، كانت تحثني عَلَى التأمُّل، كأن توازن الجسد فِي هذا الوضع يريح الذهن ويصفيه. ثم غلبتني الأفكار وتردَّد السؤال مرة أخرى: فشل أم خوف من الامتلاء؟ نقطة الماء عَلَى الأفيش تقف فِي نفس الفراغ الَّذِي تصورت أن عايدة كانت تعاني منه، فراغ مثل مساحة توتر تتضاعف وتتكاثر وتتذبذب عندها رغبتان متناقضتان: الرَّغبة فِي الحفاظ عَلَى نقاء ونظافة الإناء الفارغ، والرَّغبة فِي ملئه كُلَّمَا فرغ. صحيح أن لَهَا ابنًا وحيدًا، وصحيح أنها تحبه بقوة، إلاَّ أنها لم تكن قَطُّ مستعدة لرعايته. ورُبَّمَا لم تكن تريده أن يملأ الفراغ، أن يتعدى عَلَى قانون الوحدة الَّذِي فرضته عَلَى نفسها بعد الطلاق، أو يضع حدودًا لحريتها وشروطًا لأمومة لم تكن ترغب فِي تلبيتها. كانت القطة الرمادية فِي تلك الأثناء قد تسلقت سور البيت ومنه إِلَى بلكونة الجيران وكانت تختبر إمكانية القفز منه إِلَى حافَّة نافذتي وقد ضمَّت مخالبها الأربعة فِي وضع التحفز. لو فعلت سأفتح الضلفة وأهشها بعيدًا، لاَ أحب القطط المتطفلة. لكنها لم تفعل وأخذت تنظر باتجاهي دون أن تراني. عيناها تشبهان عيني عايدة، فيهما استدارة ونظرتهما ثابتة وقحة.

أخرجتُ كُرَّاسًا آخر كانت عايدة تشير فِي منتصفه تقريبًا إِلَى عملية الإجهاض الَّتِي أخمِّن أنها طلبت مني مالاً لَهَا، وعند نهايته إِلَى عملية أخرى. فِي الكرَّاس الثالث الَّذِي أظن أنه الأقدم، كانت أيضًا تتكلم عن السقوط والفرق بينه وبين التسقيط، بين الفعل والتفعيل. كانت تعود إِلَى نفس الفكرة فِي مواضع كثيرة من

اليوميَّات. أحيانًا كانت التفاصيل تبدو حقيقية، مكتوبة بروح لاَ يخلو من استعذاب الألم. لكني لم أستطع التأكد أيٌّ من العمليات المشار إليها فِي اليوميَّات هِيَ الَّتِي أعطيتها المال اللازم لعملها، خصوصًا أنها لم تعبأ كثيرًا بتدوين زمن كتابة اليومية.

كانت تكتب مثلما نتكلم جميعًا عن أنفسنا، لاَ تفصل بين ذاتها وذوات الآخرين، أحيانًا تستخدم ضمير المتكلم وأحيانًا تشير إِلَى نفسها بضمير المخاطَب، وفي أحيان أخرى تتكلم كأنها شخص ثالث لاَ يمتُ إِلَى المتكلم أو المخاطَب بصِلَة. كانت تستدعي تجاربها السابقة عند الحاجة، تستخدمها كما يستخدم الممثلون مشاعرهم وخبراتهم لاستدعاء الدموع واستدرار العطف. ورُبَّمَا أصبحت تجيد الكذب إِلَى حد أنه لم يعد كذبًا، تحوَّل إِلَى حالة من حالات التعوُّد والاسترخاء أشبه بالتعود عَلَى أحلام اليقظة. كانت تتخيل نفسها أذكى من الأغبياء، أي من معظم الناس الذين طردتهم بِلاَ سبب من رحمتها، أو الذين لم تعلن رضاها التامَّ عنهم. رُبَّمَا كانت دوجماتية، ورُبَّمَا كانت –بسبب دوجماتيتها– شخصية مثيرة لكلّ من يعرفها ويعرف صلابتها وإصرارها عَلَى رأيها. ألحَّت الكلمة عَلَى ذهني وَأَنَا أرى نقطة الماء منعكسة عَلَى الزجاج كأنها تسقط من غصن الشجرة خلف النافذة. أعجبتني فكرة أن تكون عايدة "دوجماتية" وسجَّلتها مثل براءة اختراع فِي كرَّاسي الشخصي. أضفتها إِلَى قائمة الصفات الَّتِي ألصقتها بعايدة ووضعت لَهَا ثبتًا فِي نهاية الكرَّاس كنت أعود إليه بين الحين والآخر لعلِّي أفهم السَّبَب وراء انتهاء صداقتنا المفاجئ أو لمجرَّد التذكر وإلصاق صور وأحداث بكلّ ملمح من تلك الملامح، متصورة أن هكذا يخلق الروائيون شخوص رواياتهم.

فقرات متفرقة تشير إِلَى علميات إِجهاض متكررة. عدت للتفكير فِي أن علاقة توطدت مع الوقت بين الإِجهاض وإِدمان الكذب والسرقة. يجمع بين الأمور الثَّلاَثة شعور عايدة بعدم الاكتمال، وهو الأقرب إِلَى تفسير رِغبتها المستمرَّة فِي التحايل عَلَى القانون الطبيعي والوضعي. اللغة الَّتِي كتبت بِهَا عايدة تلك الفقرات تثير الشكَّ فِي كونها مبنيَّة عَلَى خبرة شخصية، لكني لست قادرة عَلَى الجزم بذلك. كانت تجيد الاستخفاء إِجادتها الكذب. وتجيد الكتابة أيضًا، رغم أنها كانت تعتبر نفسها فنانة تشكيلية فِي الأساس، ترسم كثيرًا، تعرض قليلاً، وتَنْحِت أحيانًا. كانت أيضًا تكتب شعرًا تجريبيًّا (الصفة الَّتِي يطلقها كريم عَلَى كلّ كتابة يعجز عن تصنيفها) تصرُّ هِيَ عَلَى أنه شعر سيريالي... وتنشره فِي مجلات هامشيَّة تستمدُّ الفخر من هامشيتها لاَ من محتواها الفني. وكانت تصاحب الشعراء باعتبارهم زملاء مهنة وتقول فِي كلّ قعدة عامَّة أو خاصَّة إِنها "ترسم وتكتب"، ولو سُئلت عن نوع الرسم أو موضوع الكتابة أَجابت "يعني، حاجات كتيرة". يعرف أصدقاؤها أن إِنتاجها كله لاَ يتعدي عددا من اللَّوْحَات الأكواريل لا يزيد عن المئة لوحة وقليلاً من اللَّوْحَات الزيتية والمنحوتات غير المكتملة والقصائد الطوال ذات الأشطر القصيرة. كانت أيضًا تمتلك عددًا كبيرًا من المقتنيات هِيَ أعمال أصحابها الأربعة الْمُقَرَّبِين وكتاباتهم وأعمال أصدقائهم وكتاباتهم، الأمر الَّذِي جعل شقتها الصغيرة تبدو مثل مَعْرِض تذكاري لأفضل الأعمال الأدبيَّة الصادرة حديثًا فضلاً عن نماذج هامَّة وملهمة لبدايات الكثيرين من فناني جيلها التشكيليين فِي السنوات العشر الأخيرة.

تصورت أنها كتبت بعض خواطر الإِجهاض وهي تفكِّر فِي كريم. تعرفت ضمن السطور الَّتِي تشير فِيهَا إِلَى عملية إِجهاض

سريعة عَلَى كريم الَّذِي قالت عنه اليوميات إنه يتعامل مع الموت بقلب ميت. تصورت أيضًا أنها كانت تعاني من عقدة طفولة، عقدة سببها أمها الَّتِي أجْرَت عملية إجهاض واصطحبتها وهي صغيرة إِلَى عيادة الطبيب لتشهد عَلَى الجريمة. الآن لست واثقة بصحَّة تصوراتي، لذلك سأكتفي بتجميع الفقرات الخاصَّة بالإجهاض فِي كرَّاسي الخاص وأتركها بِلاَ تعليق، مثل فاصل من حَيَاة لم يكتمل معناها بعد.

"بقعة دم حمراء تحتلُّ المقعد الخلفي لسيَّارة تاكسي مسرعة. لاَ داعي للعجلة، سيتوقف النزيف حتمًا عند وصولنا. فقط سنكون قد فقدناه إِلَى الأبد، أخي الَّذِي وُلد ولم يولَد فِي المقعد الخلفي لسيَّارة يقودها سائق أعمي. يبدو أنه سقط عنوة من قمة موجة حمراء وتفرقت أطرافه الدقيقة مثل سرطانات البحر عَلَى شاطئ مياهه ضحلة تغطيه الصخور. تحلم بِهِ أمي وهو يُنشِبُ مخالبه فِي عرقوب قدمها اليسرى تاركًا عليها آثارًا لاَ تَمَّحي. حين قضم السرطان بمخلبه قدم أمي فِي الحلم، هل كان يقصد استبقاءها أم كان يبغي الانتقام؟ لن أعرف أبدًا، فلم أكن يومًا سرطان بحر، كنتُ دومًا تلك الصخور.

الميدان غير بعيد وأشجاره قُلمت بعناية. سيكون المشهد مبهجًا لو أننا نظرنا بأبصارنا إِلَى أعلى وغزونا الميدان بخطى واسعة. لكن السيَّارة لاَ تتركنَّا نجرجر أقدامنا عَلَى الأسفلت وَلاَ تدعنا نفترش خيبتنا المستترة عَلَى أسلاك الكهرباء المتقاطعة. بل توصلنا إِلَى أقرب باب يفتح ضلفته ليبتلعنا. يودعنا السائق بكلمة ازدراء فاحشة، تسمعها الأشجار فتنزوي ويخجل من فحشها الميدان فيضيق. لن ننظر إِلَى أعلى. فِي مَا بعد، فِي مَا بعد، ربَّمَا.

ولكنِّي لست حزينة لفقد أخي المفترَض. كنت متأهبة لاستقباله بذراعين قويتين وخوفٍ مُبهَم. كنت فِي العاشرة وكان فِي شهره الثالث قبل الميلاد. لم يكُن موجودًا فِي أي لحظة أعرفها، ولم تدرك أمي مسارًا لحركته فِي أحشائها. كان يحاول، بدأب وعناد، أن يخربِ صورة العائلة. فِي فراشنا المشترك، لم يكُن مكانٌ يصلح لَهُ. ولم تكُن مائدتنا تتسع لأكثرِ من خمسة أشخاص. والممر الَّذِي يوصل بين الغرفتين يضيِّق كلَّمَا عبرَته كرة. من حسن حظنا جميعًا أنه استقر عَلَى طاولة الطَّبِيب، إِلَى الأبد.

كنت أربت عَلَى كتفها وهي تغلق باب المصعد والتصقت بِهَا لحظة الصعود حَتَّى لاَ تسقط. بعد عشرين عامًا نفس الطَّبِيب، نفس الوجوم والغصة العالقة بالحلق. وقّعْتُ عَلَى الأَوْرَاق بدلاً من الزوج الغائب والتفتُ إِليها مبتسمة. كانت صديقتي تعبث بالخاتم الَّذِي ألبستها إِياه فِي بنصر اليد اليسرى. تذكرتُ أنِّي أعرتها ذات يوم فراشي ووسادتي لتلتقي صديقَنا، وأنها حين أعادتهما لِي كانت تغطيهما طبقة سميكة من الزغب. حين أفاقت من تأثير المخدر، راحت ترِبت عَلَى بطنها بحركةٍ رتيبة. ثم ربتتُ عَلَى كتفها والتصقتُ بِهَا ثانية لحظة الهبوط حَتَّى لاَ تسقط. نفس الطريق، نفس السائق الأعمى، نفس الارتياح المشوب بوخزة ألم. لم أنتبهِ لكسوة المقعد الخلفي ونحن نهبط من السيَّارة، كنت مشغولة بذكرى يدي الصغيرة وهي تمتد إِلَى أمي قاتلة أخي، فإِذا بيدي تتسع أيضًا لكف صديقتي.

لستُ المنوط بِهَا رعاية الأمهات الثكالى وَلاَ أتقن الترويح عنهن حين يداهمهن الشعور بالندم. الأطفال الذين استأصلهم الطَّبِيب من رحمي يصطفون فِي زجاجات تحليل الذاكرة المخبَّأة بعناية فِي قاع صوان مغلق عَلَى الأسرار. الآن وقد تدربوا عَلَى السقوط

يمكنني أن أستدعيهم كما أشاء وأن أعيد ترتيب المشاهد وفق إرادتي. ثم إن الأمهات مثلي لاَ يتخلصن من أطفالهن هكذا بقرار مفاجئ وحزين. الأمهات يحلمن دائمًا بطفل ميِّت يتدربن عَلَى قتله كُلَّمَا سنحت الفرصة.

كنت فِي صغري أسير وراء الزَّمَّار مثل كلّ الأطفال، مشدوهة، أحلم بلحظة الدخول إِلَى الكهف. يراقب الزَّمَّار المدخل وهو يبتلع الأطفال واحدًا تلو آخر، وَلاَ يكف عن العزف إِلاَّ وقد غابوا جميعًا عن نظره. أراقبه حَتَّى يغيب هُوَ الآخر عن نظري وأغلق ضفتَّي الكتاب فِي وجل. الآن وقد ترك لِي مزماره ترَى هل يتبعني الأطفال الحالمون بالأبدية؟

الأطباء مهذَّبون، والأمهات كذلك، يستطعن الاعتماد عليهم لتخليصهن من الأحمال الزائدة. الأطباء يفتحون ثغرات دقيقة لتسريب كتل الدم العنيدة، والأمهات يبكين حَتَّى يلتئم الجرح. يفعلون ذلك بحكمة وإتقان. تـفعـلن ذلك باستسلام العارفين. حين يطاردهن الذنب، يضعن لَهُ رباط عنق ويرسمن لَهُ لحية. فمن الأيسر وهن يصارعن للبقاء أن يلصقن التهمة برجل.

أعطيت صديقي عنوان الطَّبيب ورقم هاتفه. لم تطالبه صاحبته بأكثر مِمَّا يحتمل. قالت: لاَ تأتِ معي. فقط أعطنى المال اللازم للعملية. ذهبَتْ بصحبة صديق آخر رضي أن يعلق الذنب برقبته. ثم تقاسمتْ مال صديقي مع الطَّبيب، نصفٌ للطبيب ونصفٌ لَهَا. ووزعتْ الحزن عَلَى صديقيها، نصفٌ لصديقي ونصفٌ لصديقها. قالت وهي تودِّع الطَّبيب: دعهم جميعًا يسقطوا.

أشجار الميدان الَّتِي قُلِّمَت بعناية تستعدُّ لاستقبالنا. من نافذة السيَّارة ننظر إِلَى الأوْرَاق المشذَّبة وإِلَى سيـــقان الأشجار

الراسخـــة، ويخالجنا إحساس لاَ نعرِف مصدره بأننا نكاد نشبهها لأننا أمهات لاَ يندمن عَلَى فقد الأجنة. تدور السيَّارة نصف دورة وتعود لتخترق الطريق المقابلة لعيادة الطَّبِيب. من النافذة، نلمح للمرة الأخيرة اللافتة البيضاء المدون عليها اسم الطَّبِيب بحروف سوداء سميكة وبلا ألقاب. ندرك فجأة أننا لاَ نشبه إلاَّ أنفسنا، فيما نمضي مخلفين الميدان والأشجار خلف ظهورنا. نلعب لعبة الآلهة ونخسر دائمًا. لاَ بأس، فثمة ألعاب أخرى فِي انتظارنا أيها الرفيق".

من يكون هذا الرفيق الَّذِي تشير إِليه اليوميَّات فِي أكثر من موضع؟ تغيظني فكرة أنه رجل... لمَاذَا لم أكُن أنَا تلك الرفيقة، رفيقة عايدة وكاتمة أسرارها؟ ولِمَاذَا لَم تحكِ لِي عن الصديقة الَّتِي اصطحبتها لعيادة الطَّبِيب؟ وأي عالَم هذا الَّذِي أدخلتني فِيهِ اليوميَّات ليقوِّض معرفتي بنفسي وبالآخرين ويقضي عَلَى سلامي النفسي؟ هل التقينا عَلَى أرض مشتركة بين حب الحَيَاة ورفضها بصورتها العادية، بين الرَّغبة فِي الاستسلام والنفور من الرتابة؟ أسئلة كثيرة تعيدني للسبب الَّذِي جعلني أشعر بإقصاء عايدة لِي وتفضيلها صحبة الرجال. أسئلة كهذه لاَ تطرحها سوى النساء، فِي ساعات الوحدة والتأمُّل. كنت أتجنب طرحها عَلَى عايدة تشبُّهًا بالرجال، أو هكذا كان يخيَّل إِلِيَّ، فالرجال لاَ يتكلمون عن أنفسهم كثيرًا، لاَ يهوون الاستبطان، لاَ يبكون وَلاَ يحزنون وَلاَ يبتعدون فِي الأسئلة الوجودية عن سؤال الوجود والعدم وما شابهه من أفكار فلسفية. أما النساء فالأمر مختلف بينهن، يتحدثن عن أنفسهن ويُطِلْنَ فِي اللَّتِّ والعجن. عايدة لم تكُن تريد الانضمام إِلَى هذا الفصيل، لم تكن تهوى كشف ذاتها بالكلمات، كانت تُعوزُها الكلمات أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تعتبرها مبتذَلة لاَ تصلح لأن تعبِّر عن عذابات الروح وتحتاج إِلَى

تبرير وتفسير من المستمع الَّذِي غالبًا مَا كانت عايدة تعتبره مصابًا بقدر من الغباء. لذلك كان لَهَا أصفياؤها، ولم أكُن واحدة منهم لأني كنت فِي نظرها امرأة عاديَّة. الأحكام أصدرها عَلَى الناس وفقًا لقاموس الأخلاق الَّذِي تربيت عليه، هذا يستحقُّ الرحمة، وذاك يستحقُّ اللعنة، هذه امرأة محترمة وتلك تبتذل نفسها، هذا ابن ناس والثاني تربية رعاع. وعلى الرغم من ذلك، كنت أتصور قبل لقائي بعايدة أنِّي امرأةَ منفتحة وأخلاقية فِي حدود العرف العامِّ، فإذا بِي أكتشف سذاجة تلك الأفكار وسطحيتها، فأكفر بالعرف العامِّ وأرى كم هو منافق وجبان على عمومه. كانت خبرتها بالحَيَاة تذكرني أنِّي نشأت فِي عالَم محافظٍ وتقليدي وأصمّ. تذكرني أنِّي "عادية بشدة وبإصرار" كما قال عني كريم ذات مرة، وأضاف "بس لذيذة جدًّا"، فلم أنسَ ربطه الغريب بين الصفتين: عادية، ولذيذة. كانت عايدة تقول إنِي أتخيَّل الحَيَاة وَلاَ أعيشها، أحلم وتنقصني الإرادة، وفي الأحوال كافَّةً يُلجِمُني خوف عارم من المغامرة، من التغيير. وكنت أقول لنفسي إنِي أفضِّل أن أكون عَلَى حقّ، وأدافع عن هذا الحقّ بشراسة، وأحبّ أن يؤمِّن عَلَى كلامي مَن حولي وأتحايل ليشعروا بصدق مَا أقول وأهمية النصيحة الَّتِي أدلي بِهَا بعد تفكير، اعتمادًا عَلَى الحَدْس والفطرة الأخلاقية الَّتِي ترسخت فِي نفسي منذ الصغر. كلّ هذا كان خانقًا من وجهة نظرِ عايدة، خانقًا إِلَى حد الجنونِ، لكنها كانت تعرف كيف تسخر مني وتورِّطني فِي مشاعرَ لم أكن دومًا مستعدَّةَ لمواجهتها.

كنت أوافق عَلَى هذا وَلاَ أوافق عَلَى ذاك بثقة وحسم، كأنِّي فعلاً ذات رأيٍ وخبرة فِي الحَيَاة، ذات نظرة. ولكن بمرور الوقت تَغيَّر حالي بسبب عايدة. كتَبَتْ فِي اليوميَّات عن حياتي واعتبرتْها رتيبة ووضيعة، تنقصها الحركة ونبل المغامرة. ذكّرَتني أنَّ نَهَمِي

إِلَى المعرفة توقف عند سنّ المراهقة، عندما كنت أشطَر بنت فِي الصف. بعد الزواج اكتفيت بفتافيت الحَيَاة، أغواني "سطح الدُّنْيَا الباهت" كما كان يقول أسامة وهو يقارن حياته اليومية الخالية من المتعة بما يراه ويكتشفه فِي باطن الأرض، بقيتُ سعيدة عَلَى السطح واستقرَّ بِي الحال كأنِّي مَلِكة متوَّجة بِلاَ مملكة. اكتفيتُ بالظاهر والطبيعي والمتفَق عليه، ودارت بِي الأيام دورتها المعتادة، طاحونة أحلام. ثم اكتشفت بفضل عايدة وبالمصادفة البحتة أنِّي أسير كما يسير القطيع، أصحو وأنام عَلَى إِيقاع واحد، أتنازِل عن الحرية والطموح فِي مقابل الاستقرار الاجتماعي. ورغم أنِّي نجحت كما ينجح الناس جميعًا (زوج طيِّب وولد مجتهد وعمل مناسب وسيَّارة وبيت) فإن شعورًا مستمرًّا بعدم الرضا كان ينفرني من هذا كله ويزيد ضراوةً مع الأيام. رأيت فجأة حياتي تمضي بِلاَ معنًى، بِلاَ مستقبَل، ثابتة مثل شهادة ميلاد، لازمة مثل عقد عمل.

كيف آلت حالي إِلَى هذه الحال؟ كيف أصبحت أكثر تحفُّظًا، أكثر احتشامًا، أكثر توترًا فِي حضور الغرباء والغريبين بعدما كانت الحَيَاة تستهويني، والناس والطبائع والحكايات الغامضة تجتذب انتباهي؟ كيف نصَّبْت نفسي حكمًا عَلَى الكلّ؟ ومتى استقرَّت عَلَى وجهي تلك التجعيدة الغائرة عند مفرق الحاجبين؟ التقيت عايدة والتصقت بِهَا كما يلتصق الغريق بطوق النجاة، وهي النقيض الكامل لِي، ثم انزلقت بعيدًا عنها كأنني فضَّلت الغرق الدائم فِي حياتي عَلَى الطفو المؤقت فِي مداراتها. هل كنت أحافظ عَلَى وهم الاستقرارِ وألفة الأخلاق الرشيدة، أم كنت أحاكمها حَتَّى أثبت لنفسي أنِّي الأفضل، الأعقل، الأنجح، الأكمل؟ أدرك الآن بعد وفاتها أن عالَمي كان مصقولاً كحجر أملس، وكانت عايدة وسيلتي للخروج من هذا العالَم والتشبث بخشونة عالَم آخر يَعِذُنِي بمشاعر جديدة ليس من

بينها الملل وعدم الرضا. لم أكُن أوافقها عَلَى مَا تفعل ولم أسع يومًا لتبريره لَهَا أو لنفسي، كنت فقط أتفرج وكانت عيناي مفتوحتين عَلَى اتساعهما ونفسي الَّتِي تتنازعها الوساوس تهدأ مثل بحر رائق كُلَّمَا انكشف لِي سر أو خفق قلبي بفرحة إحساس لم يختبره من قبل.

أقسو عَلَى نفسي، أعرف ذلك ويعرف ذلك ابني الَّذِي قال لِي بعد أن أكمل عامه الرابع عشر إن قسوتي فِي تربيته نتيجة لتشددي فِي محاسبة نفسي ومحاسبة الآخرين. تبرأت من التهمة واعتبرتها مؤشرًا عَلَى أن الولد كبر. لكني بيني وبين نفسي قلت إنِي أقسو عليه لأني أدرك عيوبي حقّ الإدراك رغم أني لا أجاهر بِهَا لأحد، وفِي علاقتي بعايدة أقسو عليها لأني أحببتها رغم كلّ شيء، رغم أني تأكدت من اعترافاتها فِي اليوميّات من حادثة سرقة كنت أنَا هدفها، ومن حوادث نميمة كنت أنَا موضوعها، فضلاً عمَّا كتبَته عني وعن زوجي. حوادث أذكرها وأخرى أنساها، كلها طالتني فِي مقتل، ارتكبتها عايدة فِي حقي بدم بارد، وبلا ندم. ثم بعد مرور سنوات عَلَى صداقتنا، أرسلت إيميلاً طويلاً تقول فِيهِ إنها لم تعُد صديقتي. رُبَّمَا أدركتْ بحدسها الثاقب أني لم أعد أصدقها. أدركت أنّي نزعت عنها الثقة، وأني قررت أن أتفرج عليها. أبت أن تتحول علاقتنا إِلَى علاقة فرجة وأبَيت أنَا أن أطيل فِي شرح موقفي، أن أواجهها بما أعرف، بما يؤلمني. أبَيت أن أحيد عن طريقي المعتادة فِي التعامل مع الأسى بالصمت والنكران، ولُذْتُ بصَمْتٍ كالقبر أبعدني عنها لكنه قرَّبني من نفسي فِي الأشهر القليلة الَّتِي سبقت وفاتها. فهل هذه قسوة؟ نعم، قسوة! فِي تحمُّل الألم وفي التعامل مع الفقد وحدي، في رفض الاعتراف ورفض المغفرة. صمت وتَخَلٍ وانشغال برأب الصدع. والحقّ أنِي لم أكُن وحدي تمامًا، كنت أحيانًا ألوذ بآخرين لقطع الوقت، ولم يكن الوقت الَّذِي أقضيه فِي مراجعة

الأحداث والتذكُّر ليمضي لو لم أكُن أستعذب تلك القسوة فِي المقام الأول وأعتبرها درعًا واقية من تصاريف الزمن.

(٥)

كانت عايدة ترقد فِي الفراش منذ نهاية الأسبوع. رُبَّمَا قامت بالعملية ولم تشأ أن تخبرني. ستقول لو سألتها "no worries". وَأَنَا لن أسألها إلاَّ متأخرة، لأترك لَهَا حرية الْكَلاَم حين تريد. هذا دأبها معي، تطلبني عند الحاجة، وتقصيني عن أمورها الخاصَّة معظم الوقت وتعود لتحاسبني لأني لست صديقتها بما يكفي. تَعوَّدت كل تلك المتناقضات مع الزمن واجتذبتني لَهَا كمَعْلَم من معالَم شخصيتها الأصيلة. عرفت من أسامة أنها مريضة، اتصل بِي فِي ساعة متأخرة من الليل وقال "حالتها صعبة، وَأَنَا فِي الشاليه. روحيلها لو تقدري". أسامة هُوَ الوحيد الَّذِي يداوم عَلَى وصل مَا انقطع بيني وبين عايدة. صنعت لَهَا شوربة عدس وحملتها إِلَى شقَّة الدور الثالث. فتح لِي الباب شخص غريب. أدخلني كأنه صاحب بيت، أرادني أن أنتظر فِي الصالة لكنِّي دخلت المطبخ غير عابئة بدعوته وتبعني، ثم دخلت غرفة عايدة وتبعني. قالت إِنه صديق عاد من أوربّا أمس، غاب عدة سنوات وجاء ليستقر. قالت إِنه اتصل بِهَا من المطار، عرضت عليه قضاء الليل فِي غرفة الولد الصغير ولم يعترض. قالت إِن لَهَا سمعة فِي الحي، وإِنها لاَ تخاف عَلَى تلك السمعة. قالت ذلك ضاحكة وأشعلت سيجارة.

خرج من الغرفة مرتبكًا، ثم عاد بعد قليل بصينية الشاي لنا وسلطانية الشوربة لعايدة. جلس عَلَى حافَّة الفراش كأنه صاحب بيت وناولها السلطانية. أشعل سيجارة من علبتها دخنها مع الشاي ثم قال إِنه جاء خصيصًا ليبحث عن شَقَّة. يفضّل أن يسكن فِي حي من

الأحياء العريقة القريبة من النهر. يحب الحَيَاة وسط الزحام والناس ويحب التجوُّل عَلَى ضفاف النهر منذ كان صغيرًا فِي القرية. "عَلَى فكرة، الفلوس مش مشكلة" أضافت عايدة بنبرة خاصَّة وهي تنظر فِي عينَيَّ كأنها تَكِلُ إليَّ مهمَّة البحث عن شقَّة مناسبة للغريب. عجيبة والله! مَا لِي أَنَا وما لَهُ؟ ابتسمت ولم أردّ. كعادتها تخدم الآخرين بتوصيلهم بمن يخدمهم، بالتوسُّط لهم لدى آخرين يقومون عنها بالمهمَّة. مجرَّد الإيحاء بأنها تسعى لخدمة الناس كان يكفي ليجعلها محبوبة، وكانت تتقاضى الأتعاب محبَّة وعرفانًا وشبكة من المعارف والمريدين. كعادتي لاَ أخدم الناس إلاَّ لو استطعت ذلك بنفسي، بِلاَ وساطة. أو أتراجع عن خدمتهم وألوذ بالصمت حين يطلبون خدمة لاَ أستطيع أن أؤدِّيها، يخالجني شعور -أتمنَّى لو أستطيع مقاومته- بالذنب والتخاذل.

بعد الشاي والشوربة قامت عايدة من الفراش وقالت إنها ستأخذ حمَّامًا ساخنًا. شوربة العدس أعجبتها وشَفَتْها. شعرت بسعادة لهذا الأطراء وقمت لأجلس مكانها عَلَى الفراش، أتابع حركة جسدها النحيل فِي قميص النوم وقد دبَّ فِيهِ النشاط وانتفخ زهوًا بنفسه وهي تفتح ضلف الدولاب عن آخرها وتخرج قطع الملابس الَّتِي تحتاج إليها بعفوية بنت فِي العشرين. خرج هُوَ من الغرفة حاملاً الصينية ثم سمعته يغسل الأكواب فِي المطبخ. ودخلت عايدة الحمام وهي تتكلم معنا بصوت عالٍ، تأمرنا أن نترك كلّ شيء عَلَى حاله وتؤكد أن زوجة الْبَوَّاب ستأتي لتنظيف البيت بعد خروجنا. رتَّبتُ الفراش سريعًا، فتحت النافذة، نفضت الغبار عن الستائر، وعندما جاءني صوت الماء المنهمر من الدُّشِّ، فتحت درجًا أو درجين لَعَلِّي أجد شيئًا يلفت الانتباه، روشتة طبيب نساء، حبوبًا لمنع الحمل. لاَ شيء

سوى أدوية الاكتئاب الَّتِي كانت تتناولها عند اللزوم وأشرطة النيكوتين الَّتِي تساعد عَلَى الامتناع عن التدخين.

خرجتُ إِلَى الصالة ولمحتُه من باب الغرفة الثانية يرتِّب فراشه. بعد قليل تبعني إِلَى الشرفة الخلفية وجلس أمامي. بدأ يحكي قصة تصورت أنها لن تنتهي، بصوت عميق ومدوِّخ وممتدٍّ. يحكي عن رحلته من القرية إِلَى المدينة، ومن المدينة إِلَى العالَم، عن رأي الناس فِي الفرق بين القرية والمدينة، وعن رأيه الشخصي فِي رأي الناس، عن التغيُّرات الَّتِي طرأت فِي غيابه عَلَى الْمَكان، دخول الستلايت، ظهور السوبر ماركت، انتشار طرق البناء الحديثة. ذهني سارح فِي عايدة وفي ماضيها، كانت قد حكت لِي عن رجوعها المتكرر إِلَى القرية لزيارة مَن تبقى من أقاربها، خالة وعمة وأبناء عمّ ميت. عن ارتباطها بأهل قريتها كأنهم من بقية ناسها، وارتباطهم بهَا كأنها من لحمهم ودمهم. تصورت أن يكون الغريب واحدًا من أقاربها، نفى ذلك حين سألته وأردف: "كُنَّا أصحاب من خمسة وعشرين سنة". بحساب سريع، أدركت أنه يتحدث عن طفولتهما فِي القرية، وتعجبت أن تنشأ صداقة بين ولد وبنت فِي تلك القرى المتزمتة، فِي ذلك الزمن البعيد.

خرجت عايدة من الحمام ونادتني. تريدني أن أساعدها فِي تجفيف شعرها. جلسَت أمام المرآة نحيلة متوثبة كعادتها كُلَّمَا حل شخص جديد عَلَى حياتها أو كُلَّمَا لاحت فرصة للخروج والنزهة. قالت سنبحث لصاحبها عن شَقَّة. وقالت سنذهب أولاً إِلَى مقهى بوسط المدينة ثم نرَى. سألتها بصوت أردت أن يبدو طبيعيًّا إن كانت العملية قد نجحت. نظرَت إِليَّ فِي المرآة وابتسمت ابتسامة بدت خليطًا من العتاب والمكر، وردَّت باقتضاب: ماشي الحال. ثم ضغطت عَلَى زر السيشوار فَعَلاَ صوته عَلَى صوتي وتاهت

تفاصيل الحكاية الَّتِي تمنيت أن تُشركَني فِيهَا باعتبارنا صديقتين وباعتبارها جاءت تطلب مساعدتي. رفضت البوح فِي مقابلِ طلب المساعدة المالية، كأنها تختبر للمرة الألف حقيقة صداقتنا. ظننت أن وراء سؤالي شكًّا، أو اختبارًا، أو مجرَّد فضول ستات. ولم أُلِحَّ كعادتي.

صففت لَهَا شعرها كأنها ابنتي، لاَ أعرف مصدر هذا الشعور تجاه أصدقائي، شعور بالأمومة والمسؤولية كأنِّي الابنة الكبيرة فِي أسرة من عشرات الإخوة والأخوات. تدربت عَلَى ذلك قبل الزواج، وتأكد هذا الشعور بعد ولادة ابني. حكيت عن تلك المشاعر ذات مرة لعايدة، سخرت منها فِي البداية، لكنها تعاطفت فِي قرارة نفسها مع حالة الأمومة المفرطة الَّتِي اتهمتني بِهَا واستغلتها لمصلحتها كلَّمَا سنحت الفرصة. تقول كلَّمَا طلبت مني طلبا لنفسها: "يَا بنتي أنَا عايزة أخدمك"، وتضحك بشرٍّ كَشَرِّ الأطفال.

وعلى الرغم من أنِّي لم أكُن الابنة الكبيرة فِي أسرتي، بل كنت الثانية عَلَى أخين، وعلى الرغم من أن عايدة نفسها كانت البنت الكبيرة لأخ وأخت، فإن حدود مسؤوليتها لم تتعدَّ مسؤوليتها عن نفسها، كأنها تَنَصَّلَت من الدور الطبيعي المفروض عليها كأخت كبرى واحتفظت من اللقب بالفخر والسلطة الأخلاقية. أما رأيها فِي أمومتي فقد أعلنته فِي اليوميَّات وارتبط مَا كتبته بسيرتي الخاصَّة بمعنى من المعاني. لم أنسخ النص كاملاً، فضَّلت أن أقتطع منه الفقرات الَّتِي بدت لِي مناسبة، وأعدت كتابة الفقرة الأخيرة. بدا لِي أن عايدة تتكلم عن نفسها وعني فِي الوقت نفسه، وساورني شك فِي أن تكون هِيَ المعنيَّة بالفقرة الثانية. لكني فِي الأحوال كافَّة كنت فخورة بوجودي فِي اليوميَّات، كأني مصدر إلهام لكاتبة عظيمة لم

يمهلها القدرِ لتثبت موهبتها للعالَم. شعرت أنِّي قريبة من رُوحِها وأن كتابتها عني –رغم سخريتها الواضحة– اعتراف مُضمَر بحبها لِي.

"كُلَّمَا أرادت ماهي ممارسة أمومة مفرطة تَصَيَّدَت أحد أصدقائها مِمَّن فقدوا أمهاتهم فِي سنٍّ مبكرة وطاردته بإلحاح لإخراجه من بيته فِي حَرِّ يوليو وملاقاته فِي مقهى بوسط المدينة. هُنَاك تسأله عن صحته ومزاجه ونومه ليلة البارحة وآخر وجبة طعام تناولها والسيدة الَّتِي تتناوب عَلَى تنظيف بيته مع أخته المتزوجة وصديقته الأرستقراطية الَّتِي ترفض وهي فِي الثَّلاثين أن يقبّلها أحد وعمله الَّذِي يفكر فِي تغييره جدِّيًا كلّ صباح ويعدل عن قراره كلّ مساء والنقود الَّتِي يحتاج إِليها لشراء جوارب جديدة والشقة الَّتِي يحلم باستئجارها فِي وسط المدينة بعيدًا عن أسرته... وماهي تضحك حينًا (تُخفِي وجهها بيديها حين تضحك) وتبدي اهتمامًا مأساويًّا بحال صديقها حينا آخر (تبحث فِي حقيبتها عن مناديل ورقية استعدادا للبكاء حين يثير صديقها ذكرى وفاة أمه)، وتبدو مبتهجة فِي كلّ الأحوال حَتَّى يرى صديقها وجه الأمومة المشرق.

عندما يسيران جنبًا إِلَى جنب عَلَى الرصيف المشمس المقابل للرصيف المعتم حيث يقع المقهى تكتفي ماهي بملامسة كتفه من حين إِلَى آخر، وعندما يقفان لعبور الطريق بعد أن لفحتهما الشمس تلتفت نحوه دون أن تنظر إليه وترفع وجهها قليلاً باتجاه السماء لتصبح إضاءتها الطبيعية مصدرًا للإيحاء (لَهَا ومن ثم لَهُ) بمشهد سينمائي بالغ العذوبة عن علاقتهما العاطفية المفترَضة.

الجرسون ينحني أمامها برفق ويسألها "كابوتشينو؟"، فتهز رأسها باسمة كمن يقول "وماذا غيره؟"، بينما يتشاغل صديقها بقراءة عناوين الصحف الَّتِي لاَ يشتريها أبدًا وَلاَ يطالعها إِلاَّ نادرًا. وجد

الصحيفة عَلَى مقعدٍ قريب حيث تركها جارهما فِي المقهى وانشغل عنها بالقراءة ليؤنبها عَلَى نزوله من البيت فِي يوم قائظ كهذا. بمهارة وخفة، تخترق إصبعُها الجريدة وتنفذ إِلَى صدره، تمامًا عند فتحة القميص العلوية حيث تقع عظمة الترقوة. تغوص الإصبع فِي اللحم، فِي الفجوة المستقرّة أسفل الرقبة، تحدث ثقبا صغيرًا تنفذ منه ماصَّة بلاستيكية وتتلذ بمذاق الدماء السميكة المندفعة بحرارة إِلَى حلقها. يرفع ذقنه قليلاً لمطالعة عنوان الصفحة الرئيسية فتبدو الفرصة مواتية لقضم طرف الذقن بحركات خفيفة متكررة قبل العودة إِلَى الماصة. يطوي الجريدة فيبدو وجهه الشبحي ذو العظام البارزة وقد اكتسى يتمًا عَلَى يتمه. تفتح ماهي عينيها ببطء فيبدو وجهه قبيحًا بدرجة تثير ذهولها حتَّى إنها تشهق شهقة خفيفة وتقوم مسرعة (اندلق الكابوتشينو عَلَى البلاط) لتغادر المقهي دون دفع الحساب.

عندما يلحق بِهَا صديقها، تكون الدماء قد عادت إِلَى وجهه ويبدو لَهَا مستريحًا، تمامًا كمن انتهي لتوِّه من فعل شهوة مفاجئ، وتكون هِيَ قد عبرت الطريق لتقف عَلَى الرصيف المشمس أمام محل لبيع الملابس للرجال. تبتاع لَهُ ثلاثة جوارب ملوّنة وتصِرُّ عَلَى اعتبارها هدية لَهُ بمناسبة دخول الصيف. ماهي تدرك أنها بعد قليل ستترك صديقها لتتجول وحيدة وسط المدينة. تمارس عَلَى نفسها شفقة مستترة لأنها ستعود وحيدة من جديد، ولأن أمومتها لم تَفِضْ كما ينبغي لتغمر العالَم كله. لكنها تشعر ببهجة تعرف أن مصدرها تلك الهدية المفاجئة، وتشعر أيضًا ببعض السأم يجعل اليوم ممتدًّا أمامها إِلَى الأبد".

سَمَّتني "ماهي" فِي اليوميَّات كما أطلقت عَلَى الغريب الذي استقبلني في شقتها اسمًا غير اسمه، سَمَّته "حسام"، وحفاظًا عَلَى

السرّ لم أشأ أن أعيد لَهُ اسمه الحقيقي فِي اليوميّات المنسوخة. كانت تتوقع أن يقرأ أحد أصدقائها الكُرّاسات يومًا مَا، وتحتاط مثل ثعلب ماكر. قالت لِي ذات مرة إنها ستكتب فِي وصيتها عددًا من الأشياء باسمي، وضحكت. لم تفسر ماذا كانت تعني وما تلك الأشياء، لكني اعتبرت كرّاس اليوميّات واحدًا منها، واحدًا من أشياء عايدة الَّتِي لاَ شكّ كانت تعرف بحكم التكتّم المشهود عنّي أنّي سأحافظ عليها.

بعد أن صففتُ لَهَا شعرها، خرجنا إِلَى مقهى بوسط المدينة. التقينا أصحابًا مشتركين وثرثرنا فِي أمور كثيرة فِي انتظار أن يلحق بنا كريم الَّذِي اتصلت بهِ عايدة وألحّت أن تراه هذا المساء. وصل كريم متأخرًا وظلَّت عايدة جالسة لاَ ترحب بهِ كعادتها وَلاَ تدعوه للجلوس بجوارها. اقترح اصطحابنا بسيارته لجولة بحث عن شقّة لحسام فهبّت عايدة من مقعدها فرحة واندلق مَا تبقى من فنجان الكابوتشينو عَلَى الأرض. انطلقت أمامنا متغافلة دفع الحساب، مكتفية بالاعتذار للمتر عن الفنجان المكسور قبل أن تسبقنا إِلَى السيَّارة. أتذكر أننا تبعناها بنفس الحماسة وبنفس الفرحة كأننا فعلاً عثرنا عَلَى شقّة وحقّقنا حلم الضيف فِي الاستقرار، بينما تعمَّد حسام الإبطاء ليدفع الحساب ويكون آخر من يدخل السيَّارة.

إمعانا فِي معاقبة كريم عَلَى التأخُّر، جلست عايدة فِي المقعد الخلفي وأجلستني فِي المقعد المجاور للسائق بينما استقر حسام إِلَى جوارها. كان كريم يراقبهما من وقت إِلَى آخر فِي المرآة الأمامية وهما يتهامسان، فيما تجاهلت أَنَا صوت همسهما وانشغلت بالحديث معه عن رواية قرأتها لَهُ منذ زمن ولم تُتَحْ لِي فرصة التعليق عليها. قلت كلامًا عامًّا عن الشخصية الرئيسية فِي الرواية وعن مدى إعجابي بالأسلوب، فيما ظل هُوَ صامتًا، ينظر من وقت إِلَى آخر فِي المرآة ويعود ليلاحظ الطريق وهو يتمتم بكلمات مقتضبَة، يشكرني

عَلَى اهتمامي بروايته ويسألني بِلاَ حماس ماذا أعني بهذا الرأي أو ذاك. كُنَّا نتشاغل عن عايدة وحسام بكلام محسوب وجبان عن الأدب عمومًا وعن روايته بخاصَّة، وكنت من ناحيتي شديدة الحذر خوفًا من آراء كريم الحاسمة واستخفافه بالنقد، وأراحني أنه لاَ يأخذ موضوع الحديث عَلَى محمل الجد.

مضت السيَّارة بموازاة النهر زمنًا حَتَّى كدنا نخرج من كوردون المدينة، ثم توقفت عَلَى ناصية شارع ضيِّق يتعامد عَلَى الطريق الرئيسية ويصعب دخوله بالسيَّارة. ترجلنا ووقفنا بالقرب منها نتأمل الأشجار الباسقة والطريق المتعرجة فيما مد حسام يده إِلَى عايدة يعينها عَلَى الخروج من السيَّارة. رفعت بصرها نحوه كأنها أميرة من أميرات السينما وابتسمت كما لم أرَها تبتسم لأحد من قبل. كانت الفقرة الَّتِي تشير إِلَى شخص يحنو عليها كعنقود عنب تشير غالبا إِلَى حالة مشابهة، عندما قرأتها تذكرته وهو ينحني قليلاً صوبها عند باب السيَّارة. ساعتها كان حسام من وجهة نظري غريبًا علينا نحن أصدقاء عايدة المستديمين، وكان يحاول أن يرسم دورًا لم يكن جديرًا بالقيام بِهِ، يقتحم حَيَاة امرأة ليست مستعدَّة للتنازل عن حريتها وأنانيتها من أجله، يريد أن يصيدها فإذا بِهَا تصيده. الصراع الَّذِي احتدم فِي مَا بعد بينهما لم يكن سوى دليل آخر عَلَى صدق حَدْسِي، فلقد أدركت فِي ذلك المساء أن خروج عايدة من زيجتين فاشلتين ومن عملية إجهاض محتمَلَة (كِنت مَا زلت أشكُّ أنها كذبت عليَّ بشأن العملية لمجرَّد أن تحصل مني عَلَى بعض المال أو عَلَى مزيد من التعاطف والثقة) كان خروجًا مؤقَّتًا من دائرة الفشل، يشي باحتمال السقوط فِي بئر أخرى بِلاَ قرار. كانت البئر هِيَ بئر العلاقة الجديدة الَّتِي تفتحت تحت أعيننا وأذنت منذ بدايتها بالنهاية.

قادنا كريم إِلَى قلب الشارع المتعامد عَلَى النهر ودخل فِي زقاق صغير بين عمارتين واختفى. لم نتبعه، انتظرناه أمام مدخل العمارة المضاء بالنيون فيما رفع حسام بصره وراح يعدُّ الطوابق. عشرة طوابق أم اثنا عشر طابقا؟ يخطئ فِي العدِّ وتضحك عايدة وتعدُّ معه. تؤكد أن البناية مكوَّنة من أكثر من اثني عشر طابقًا، وتمسك بإصبعه الصاعدة من طابق إِلَى طابق ويعدَّان مَعًا، تلتصق بصدره بِلاَ حرج، بعشم صداقة بدأت تتشكل منذ خمسة وعشرين عاما ولم تكتمل إِلاَّ بعد عودة حسام من الغربة.

يعود كريم وفي ذيله الْبَوَّاب. يلقي الْبَوَّاب التحية علينا وهو يغضُّ البصر ويقودنا إِلَى الأسانسير الأول للأرقام الزوجية. يتركنا نصعد فِيهِ ويأخذ وحده الأسانسير الثاني للأرقام الفردية. تخبط عايدة حسام عَلَى كتفه وتعلن انتصارها وهي تدوس عَلَى زر الطابق الثاني عشر. شقَّتَان فقط فِي الطابق، بابان متقابلان، يلحق بنا الْبَوَّاب ويدعونا للصعود عَلَى الأقدام دورًا آخر يفضي إِلَى السطح. يفتح بابًا وحيدًا أعلى السلَّم يُؤدي إِلَى بهو من الرخام يليه صالون كبير نسبيًّا ومنه إِلَى التيراس. يقول "هُنَا الروف يَا فندم"، ويفتح باب الشرفة المنزلق عَلَى مصراعيه. هواء النهر لاَ تخطئه الرئة، ينفخ فِيهَا فيتسع العالَم من حولنا. ظلام وهواء منعش وأنوار بعيدة وشجرة صبار هائلة ترتسم ظلالها المسنونة فِي الركن القَصِيٍّ من "الروف يَا فندم". وكأني أحلم، وكأننا جميعًا نحلم. كيف استطاع كريم بخبطة حظ واحدة أن يجد الْمَكَان المناسب لصديق عايدة؟ تجولنا فِي الروف منوَّمين بفعل نداوة الهواء وهسيس الريح، وكانت عايدة أكثرنا سعادة. قالت فجأة: طول عمري نفسي أسكن فِي روف. سمعناها جميعًا ولم نعلِّق. كان نفس الحلم يراودنا جميعًا. استأجر حسام الشَّقَّة عَلَى الفور ودفع مبلغًا ماليًّا كبيرًا للبواب الَّذِي أفاض

فِي شرح مميزات العمارة وعرض جميع الخدمات الممكنة الَّتِي من شأنها أن تجعل البيه مرتاحًا والهانم مبسوطة. وحسام وعايدة يتغامزان ويتماديان فِي لعبة عريس وعروسة.

هكذا، بعد يومين فقط من عودته إِلَى البلد، سيطر علينا حسام بتلك البساطة الَّتِي يعرفها مهاجر ثري تغرب وعاد ليؤسس مجتمعًا جديدًا فِي بلده. جمع حوله أصحابًا لم يضيع وقتا لاستقطابهم، وخدمًا وحشمًا لم يبخل عليهم بالمال من أجل راحته. كان جذابًا بكلّ المقاييس، أنيقًا ومعتدًّا بنفسه، حركاته وايماءاته رقيقة كأنه امرأة، لكن عينيه عينا رجل متمرس فِي الصيد. رُبَّمَا تعلم ذلك من رحلاته الطويلة ومن شروط العمل كرجل أعمال يقتضي عمله أن يُرضي الجميع أو يُغوي الجميع وَلاَ يفلت من قبضته أحد إِلاَّ بإرادته. كان حسام يبهرني ويُشعِرُني بالخجل من نفسي كأنِّي امرأة لم تنضج بعد. زارني مرة فِي الحلم وكنت عارية تمامًا عَلَى فراشه وكان يعبث بصدري كأنه امتلكني، لم يلمس صدري أحد غير زوجي وكنت أعتقد دائمًا أن هذا الجزء من جسمي دون سواه حقٌ مطلق لَهُ وحده. صحوت عَلَى فزع ورغبة تعتصر أسفل بطني أطفأتها وحدي فِي عتمة الحمَّام وعدت إِلَى الفراش مُنهَكة ومنتشية فِي آن واحد، لكن الأرق لازمني حَتَّى صباح اليوم التَّالِي وألحَّت عليَّ صور خياناتي الذهنية الحاضرة والماضية كأنها أسراب من فراشات ونحل، تارة ترفرف محلِّقة فِي الذاكرة وتارة أخرى تلسع جسدي وتلهبه. بعد هذا الحلم قررت أن أتجنب الحديث مع حسام أو عَنْهُ مع عايدة الَّتِي أصرَّت منذ بداية العلاقة بينهما أن تفرضه علينا. لحسن حظنا جميعًا، لم يكن منتظمًا فِي السهر أو الخروج معنا، كان يسافر كثيرًا، سفرات قصيرة أو طويلة، لكنها كانت تبعده عن الشلَّة بما يكفي لكي تعود عايدة إِلَى سابق اهتمامها بنا.

فِي تلك الشَّقَّة الجديدة، كانت القبلة الأولى بين عايدة وحسام. قبلة وصفتها لِي بأنها مباغتة تسحب الروح لعمق المعدة. كانت هِيَ البادئة بِهَا، لم تستطع السيطرة عَلَى نفسها لمجرَّد أنه أمسك يدها واستبقاها لجواره لحظة. كانا يحملان مَعًا بعض الصناديق والحقائب، يضعانها كيفما اتفق فِي ركن الصالة ويعودان إِلَى الأسانسير المفتوح ينقلان غيرها. حركة دوارة مدوخة، يلتفت فيجدها خارجة من الشَّقَّة، تلتفت فتجده خارجًا من الأسانسير. ثم أغلق الباب عليهما وقال: خلاص. كانت تمرُّ بجواره وتتفادي الصناديق حين أمسك برسغها واستبقاها بالقرب منه، قال: تعالِي. وقفت منبهرة الأنفاس قلبها يدقّ بعنف من الشيل والحطّ. جلس عَلَى صندوق وأجلسها عَلَى ركبتيه. رفع خصلة شعر عن جبينها ومسد ظهرها بيده وقال هامسا: ثانك يو يَا عايدة. قامت وهي تبتسم وقالت وهي تتجه نحو الشرفة فِي دلال: عَلَيّ إِيه؟ إحنا أصحاب. ظل عَلَى جلسته ينظر إِليها معاتبًا ولم تدرِ إِلا وهي تعود إِليه وتنحني فوق رأسه وتقبّله طويلاً، قبلة هِيَ العمر كله.

(٦)

كانت حكايات عايدة تزداد غموضًا مع الوقت، رُبَّمَا لأنها حكايات بِلاَ أسماء وبلا تاريخ، ورُبَّمَا لأني لم أستطِع تخمين الأسماء رغم معرفتي الوثيقة بمعظم أصحابها المُقَرَّبِين ولم أتوقف طويلاً عند زمنها لفرط مَا تتداخل الفقرات وتتشابك. كأني كنت قريبة منها بعيدة عنها فِي الوقت نفسه، يفصل بيننا سور من الأكاذيب والأسرار. عندما عثرت عَلَى اليوميَّات تمنيت أن أجد فِيهَا مَا يعيد ثقتي بحبها لِي وتقديرها صداقتنا. أقرؤها وأعيد قراءتها، لكني أخفِق فِي العثور عَلَى الدليل الدامغ. أنسخ بعض الأسطر فِي كرَّاسي وأعيد القراءة بعين التعاطف، كأن عايدة تكتب من أجلي أنَا لاَ من أجل قارئ مفترَض. كأنِّي أعيد لنفسي الاعتبار الَّذِي أفقدني إِياه كذبها المتكرر وتجاهلها لِي قبل اختفائها الأخير.

اليوم أتأملها بعين الخيال فَلاَ أكاد أصدق أن هذه الفتاة النحيلة الَّتِي تهوى الأوبرا وتتحدث اللغة الإِنجليزية بطلاقة هِيَ فِي الأصل ابنة قرية من الجنوب لاَ يظهر اسمها عَلَى الخرائط. تقول فِي اليوميَّات: "وُلدتُ فِي قرية صغيرة تغفو كلّ مغيب عند سفح جبل عتيق، يرهبه الناس كلَّمَا تعاركت عَلَى قِمَّته الرياح ويحنقون عليه كُلَّمَا رست عند سفحه الأتربة. غادرت القرية إِلَى المدينة مثلي مثل مئات غيري، غادرتها بِلاَ رجعة. كنت أتحسس الخطى عَلَى طريق الحرية، يراودني حلم الفن والمعرفة، أما الآن فقد أصبح الشَّكّ فِي إِمكانية البقاء هُنا إِلَى الأبد أمرًا حتميًّا، لاَ أعرف مَا الَّذِي فسد وَلاَ

كيف تسلل الإحباط إِلَى نفسي، وَلاَ أستطيع أن أخمن كيف ستكون النهاية، لكن فضولي يدفعني إِلَى الانتظار".

هكذا تصف بكلمات قليلة وبلا إطالة لحظة حلولها عَلَى المدينة وتضع حركة الهجرة فِي سياق أكبر من سياق الولع الشخصي بالمغامرة. السياق الأصغر كما كنت أراه كان يصور لِي عايدة شخصية هشَّة مطيورة. تقول لم يكُن لديها خيار آخر، وتردِّد أن تصوُّرها عن الحَيَاة فِي سياقيها الكبير والصغير مفروض عليها كالقدر وهي لاَ تقوى عَلَى تحدي القدر.

لم تكُن امرأة متحققة بمقاييس المجتمع، ولم تكُن مثالاً للفشل أيضًا. كانت بمقياس الناجحين بين بينين، تحتقر كلّ مَا يذكرها بالدونية الاجتماعية لأنها فقيرة ومطلّقة وعاطلة، وتتعلق بكلّ من يوحي بعكس ذلك، الأغنياء المرفهين مثل زوجها الثاني ومثل حسام، والمثقفين المنفتحين مثل أسامة وكريم، والملتزمين أخلاقيا بالوراثة مثل عادل ومثلي. تنتظر أن ينتشلها من شقتها المتواضعة ومن وضعها الاجتماعي البسيط فارس نبيل وثري، بشرط أن تحبه، بشرط أن لاَ يفرض عليها مَا يقيِّد حريتها، بشرط أن يتركها تحب آخرين لأنها "أرتيست" غريبة الأطوار، بشرط أن ينفق ماله عليها وَلاَ يجبرها عَلَى عمل تكرهه، بشرط أن يظل تحت قدميها متيَّمًا مخلصًا مكتفياً بوجودها بغضِّ النظر عن قدرتها أو عدم قدرتها عَلَى منحه مَا يحتاج إِليه من حب ورعاية. كلّ الشروط الَّتِي لم تكن لتتوفر فِي من يمتلكون المال عَلَى أي حال، والذين كانوا يقايضونها عَلَى كلّ شرط بشروط أكثر ضراوة ترفضها فتحنق عليهم وتنفرهم منها بعد حين. لم يدخل حياتها فارس حقيقي يغدق عليها من مشاعره ويحررها من الديون والانتظار، دخلها صعاليك متخفون على هيئة فارس يحسبون حساب كل خطوة ويتوقعون في مقابلها

ثمناً عينياً مغلفاً بمسحة غرام وبعض الشوق والحنان. هي أدركت ذلك بخبرة الفشل، لكنها أدركته بعد فوات أوان التراجع وظلت تحاول عكس اتجاه العقل، عكس الذاكرة.

كلّ مَا يحيط بعايدة كان ملتبساً. تعرف أنها تلمع فِي أحلك المناطق ظلمة بوازع من شخصية جسور وطاقة لاَ تهدأ وسحابة تحميها وتظلّلها أَيْنَمَا ذهبَت، سحابة من الأكاذيب دائمة الحركة، دائمة التشكُل. كُلَّمَا راجعتها فِي شيء قالته أو ذكَّرتها بحدث حكته لِي فِي الماضي وكذبت بشأنه فِي الحاضر، أعادت مَا قالته بتفسير مخالف وصياغة جديدة. تضيف تفاصيل تبرِّر الكذبة وتعطيها معنًى. تحكي وهي تنظر فِي عينَيَّ بثبات، لاَ تحيد عنهما، تنتظر لحظة انكسار النظرة فِي عينيَّ، لحظة الاستسلام. أقول فِي النهاية إنِي أصدقها، فتبتسم منتشية بانتصارها ابتسام الكاذبين المحترفين، ابتسامًا يصدر عن الشفتين فيما تبقى العينان ثابتتين بلاَ تجاعيد. لاَ يعود الكذب كذبًا لو أنه حَظِيَ باعتراف الآخرين، حَتَّى لو حصل الكاذب عَلَى هذا الاعتراف بالحيلة أو بالايحاء.

أكاذيب عايدة لاَ تهمُّني وَلاَ تؤذيني، مَا يهمُّني هُوَ طريقتها فِي الكذب، ذكاؤها فِي تلفيق القصص، الحبكة الَّتِي كانت تجددها وتطوِّرها كل مرة عن زواجها الأول والثاني وعن ظروف طلاقها، عن مصدر دخلها رغم عزوفها عن ممارسة أي عمل ثابت، عن الرجال العابرين فِي حياتها "أيام الجرف" كما كانت تسمِّي مغامراتها العاطفية والجنسية فِي السنوات الأولى لاستقرارها فِي المدينة. تكذب وهي تتحدث عن حلمها بالاستقرار والعثور عَلَى العمل المناسب، عمَّا قاله ابنها لَهَا فِي آخر زيارة لَهُ، عن ثمن الثوب الجديد الَّذِي ارتدته فِي الحفل الَّذِي أقامته فِي بيتها ونسيت أن تدعوني إِليه، عن كونها دعتني إِلَى الحفل منذ أسبوعين وكوني

أجبت أنِّي سأكون مسافرة، عن أي شيء وكلّ شيء. دوامة منٍ الأكاذيب دخلتُها بإرادتي منذ قررت أن أتفرج عَلَى عايدة وأن أكف عن تصديقها. دوّامة لذيذة وممتعة أخرجتني من رتابة الحَيَاة اليومية، مهينة ومخجلة لأني وافقت أن أكون شاهدة صامتة عَلَى نزواتها المتكررة فِي مقابل الحصول على فتات صداقتها.

كان أكثرِ مَا يجذبني ويثير خيالي هُوَ حكاياتها العاطفية. كنت أعرف فصولاً من بعضها وحكت لِي بنفسها فصولاً أخرى لم يكتمل معناها إلاَّ بعد قراءة اليوميَّات. حكايتها مع كريم كانت تهمُّني بشكل خاصٍّ، لاهتمامي أصلاً بكريم الَّذِي كان يخيفني ويجتذبني فِي الوقت نفسه. كريم هُوَ ابن الطبقة الوسطى رغم مَا يوحي بِهِ اسم عائلته من بريق أرستقراطي، يكبرنا بعشر سنوات تقريبًا، يتمتع بشهرة معقولة فِي الأوساط الأدبيَّة بسبب روايته الأولى الَّتِي حفلت بمشاهد جنسية جرئية فضحت الكثير من أصدقائه فِي الوسط وكشفت عن موهبة لاَ تبارَى فِي وصف العلاقات الحميمية من منظور إيروتيكي لاَ يخلو من سخرية سوداوية. لكن شهرته وحدها لم تكن كافية لكي تضمَّه عايدة إِلَى قائمة المقرَّبين، كان هُنَاك شيء آخر يجتذبها إِليه، رُبَّمَا الانتماء إِلَى فصيل الصعاليك الأُصَلاء، الانتهازيين باسم الفن، ورُبَّمَا التعالي عَلَى كلّ مَا يشي باستقرار طبقي والانجذاب إِلَى نفس الطبقات الَّتِي يتعاليان عليها، أو الإِعجاب بموضوعات لاَ يشركان أحدًا فِيهَا مثِل التلذُّذ بالتجارِب الجنسية المتنوعة وما قد يصاحبها من مشاعر تحقُق أو إِحباط، وهواجس الموت وسيناريوهات الانتحار الَّتِي كانا يتحدثان عنها لساعات عَلَى الهاتف بين منتصف الليل والفجر.

عندما انضممتُ إِلَى الشلَّة كان كريم متربِّعًا عَلَى العرش منذ سنوات، كان أقرب الأقرباء لعايدة رغم أنها آنذاك كانت زوجة

للمرة الثانية وكانت تنوي الطلاق للمرة الثانية، وكريم يشجِّعها وهو يلعن الزواج والمتزوجين. كان متزوجًا عن غير حب، زوجته ثرية تعوله من مالها ومال أهلها وهو يخونها بداعٍ وبلا داعٍ كلَّمَا سنحت الفرصة. ينتقم منها رُبَّمَا؟ أو يمارس حياته باعتبارها ليست جزءًا منها. علاقاته النسائية تعرضها عليه الصدفة، تمتدُّ أيامًا أو أسابيع عَلَى الأكثر وينجح بتمرُّس وكياسة فِي التخلُّص منها مقنعًا الطرف الآخر بأنه ضحية الظروف. يردِّد لكلِّ امرأة يتوهم أنه وقع فِي حبها كلمة صارت علامة عَلَى شخصيته، بدلاً من أن يقول إنه يحبها كان يقول إنه يعبدها. اللفظ يريحه لأنه لاَ يُقال إلاَّ لربٍّ، ولأنه كان مُلحِدًا بشراسة فلم تكُن تعنيه ربوبية المرأة وَلاَ تثيره شيطانيتها. التعبير عن انجذابه إِلَى امرأة يشتهيها أو يتوهم أنه وقع فِي حبائلها باستخدام لفظ العبادة الخالي من مضمون الحب يتفق وطبيعته اللا مبالية الأقرب إِلَى العدمية. الزوجة الساذجة الَّتِي تبحث عن مغامرة، والفتاة متوسطة الجمال الَّتِي فاتها قطار الزواج، وسيدة الأعمال الأنيقة الَّتِي لاَ تريد الارتباط برجل أدنى منها طبقيًّا لكنها لاَ تمانع فِي مصاحبته لتمضية الوقت، كنَّ ينسَقْن وراء الكلمة ويتصورن أنها درجة أعلى من درجات العشق. هُوَ كان ينصِّب المرأة إِلَهًا لكي يسهل عليه أن يكفر بِهَا، وهي كانت تقبل بسجوده المؤقت وتكتفي بِهِ عوضًا عن مشاعر الحب الدائم.

لم تقُم علاقات كريم النسائية حاجزًا بينه وبين عايدة، بل كانت هِيَ من يشجِّعه عليها ويتواطأ معه أحيانًا فِي ترتيب اللقاء الأول أو فِي التخلُّص من صديقة مُلِحَّة عند اللزوم. كما أن علاقتهما لم تكُن تخلو من تبادل الخدمات الجسدية ببساطة وبلا ترتيب مُسبَق، بطلب منه أو بإشارة منها. كنت أرى أن تلامسهما أمام الأصدقاء تأكيد مقصود لنوع الصداقة الغريبة الَّتِي تجمعهما. ولكن رأيي لم يكُن

مسموعًا من أحد، كان رأيًا منزويًا مثل لسان مشلول، تسيطر عَلَى هذا الرأي وعلى غيره رغبتي الدائمة فِي الانتماء إِلَى الشلّة بلا أحكام، وبلا تعليقات من شأنها أن تخدش الجناح الأملس الَّذِي أحتمي تحته، جناح الصداقة مع عايدة.

من جانبها كانت عايدة تؤمن بقيمة كريم الأدبيَّة وتشجِّعه عَلَى النشر وترسم لَهُ أغلفة كتبه وتردِّد أمام الأغراب أن علاقتهما علاقة شعرية، أي علاقة حب كبيرة بالمعنى الواسع لكلمة حب. لاَ يصل إِلَى تلك المرتبة إلاَّ من تصطفيه عايدة وتُدخِلُه فِي رحمتها. وكان كريم يعتبرها أهمَّ حبيبة فِي حياته، إن لم تكن الحبيبةَ الوحيدة فِي حياته، ولم يكُن يجرؤ عَلَى مطالبتها بأكثر مِمَّا تستطيع أن تمنحه إياه، كثير من الاهتمام، لمسة حنان من وقت إِلَى آخر، وصحبة حميميَّة يزهو بِهَا أمام الآخرين، المبعدين والْمُقَرَّبين عَلَى السواء. كان يشعر بالفخر عندما تخصُّه بسهرة لَهُ وحده باعتباره الحبيب السري رقم واحد أو تُجلِسه بجوارها فِي مجلس الأصحاب باعتباره الصديق الأقرب إِلَى قلبها، أو بمجرَّد أن تطلبه عَلَى الهاتف وتسأله إن كان يستطيع المرور عليها فِي البيت لأمر هامٍّ. كان طلبها البسيط عظيمًا فِي نظره، وكانت تتعمد أن تطلب منه مَا تعرف أنه يسهل عليه تلبيته. طلبات عادية لكنها تشعِرُه بقيمته فِي حياتها، وتحقق لَهُ القدر الضئيل من الرضا الَّذِي لاَ يتعارض مع أنانيته وولعه بذاته.

حُبُّ عادل لعايدة كان مختلفًا. هُوَ طبيب باطني مُحِبٌّ للفن، يكتب قصصًا قصيرة فِي الخفاء وَلاَ يُطلِعُ أحدًا عَلَى كتابته سوى عايدة. تقرأ مَا يكتبه بتعاطف وتنصحه دائمًا أن ينتظر. مستعدٌّ فِي أي لحظة للمثول بين يديها، تطلبه فِي أي وقت من الليل أو النَّهَار وتفسد عليه علاقته بزوجته وأبنائه، عن عمد أحيانًا وأحيانًا أخرى

من باب النزق وحب التملك. تمسكه من اليد الموجوعة، باعتبارها خبيرة فن وباعتباره فنانًا هاويًا. لم تكن تستطيع أن تعبِّر عن رأي قاطع فِي قصصه. مرة وحيدة لم تتكرر، قرأت لنا نصًّا كتبه عادل كأنها تتحسس رأينا فِيهِ قبلِ أن تُصدِرَ حكمها النهائي عليه. لم تستأذنه، انتظرت أن نلتفَّ جميعًا حول مائدة عامرة بالْمَزَّات وزجاجات الستيلا المثلجة وخمر بوردو، ثم أخرجت أَوْرَاقًا من دُرْج سحريٍّ فِي طاولة الصالة وقالت: اسمعوا يَا شباب. "لعبة الحب والمصادقة. قصة قصيرة". مَا إِن قرأت عنوان النصِ حَتَّى انتفض عادل، ثم قام بعد انتهائها من قراءة الفقرة الأولى ليدخن فِي الشرفة الخلفية.

أكملتْ غير عابئة بِهِ حَتَّى انتهت من القراءة وأشعلت سيجارة وقالت مبتسمة: مَا رأيكم دام عزّكم! كان كريم قد اصطحب فِي تلك الليلة فتاة لاَ تزيد سنها عَلَى العشرين وظل طوال السهرة ملتصقًا بهَا، يهمس فِي أذنها "أعبدك، أعبدك"، ويقبِّل طرف أذنها أو يقضم أَطراف أصابعها فتتلفت لتتأكد أن الكلّ يراها وأنها محطُّ غيرة النساء فِي الْمَكَان. تُضحِكُني كلمة "أعبدك" كُلَّمَا قالها كريم وأداري الضحك بالانشغال عنهما، والفتاة لاَ تصدِّق أن العبادة فِي الحب ممكنة أو أن معجزة مثل معجزة الإِيقاع بكاتب نصف مشهور مثل كريم يمكن أن تحدث لَهَا. وكان هذا يزيدها غنجًا ودلالاً فتبدو مثل إِوزة منفوشة الريش وبلهاء. ابتعد كريم قليلاً عن صاحبته واعتدل فِي جلسته وسأل عن اسم الكاتب. أجابت عايدة: مين قال كاتب؟ يمكن كاتبة. ساد الصمت لحظة، صمت كالجبل، خمَّن البعض أن عادل صاحب القصة لكن البعض الآخر خاف أن تكون عايدة هِيَ صاحبتها وبدا أن الكلّ مستاء من سذاجة المشاعر الموصوفة فِي القصة، لكنه لاَ يجرؤ عَلَى النطق بحكم. وحده كريم أدرك أن عايدة

تقرؤها علينا لتسترشد برأينا قبل أن تصرِّح برأيها لعادل. تحتمي بالجماعة دائمًا وَلاَ تصدر حكما عَلَى شيء أو شخص قبل استشارة الأصدقاء. قال كريم بعد برهة: ماشي الحال، بس فِيهِ حاجة مش فاهمها فِي العنوان. وصمت كأنه يتمعن فِي محتوى المفارقة الَّتِي تشير إِليها عبارة "لعبة الحب والمصادقة". التفت الجميع نحوه مستنجدين ليخلِّصهم من حرج الموقف، وعايدة تغالب نفسها حَتَّى لاَ يبدر منها تعليق تندم عليه. لاَ تدري لأي من الرجلين ستنتصر فِي النهاية، كريم شرير وسِمَّاوي وابن نكتة، وعادل طيب وعلى نياته ويبوس التراب الذِي تمشي عليه. أبدى أسامة زهقه من اللعبة وقام ليُحضِر مكعبات ثلج من الفريزر. وتعلقت أعين كومبارس السهرة الآخرين بوجه كريم وهو يقول متهكمًا: مش فاهم مين فيهم حبها ومين نام معها. علت الضحكات وعلت عليها جميعًا ضحكة الفتاة صديقة كريم الَّتِي حاولت أن تبدو أكثر استعدادًا لمجاراته فِي الإباحية لو تطور الموقف بشكل وصفي وصريح. هدأ توتر من لم يكن له رأي في القصة وتابع كريم: لأ صحيح، أصل دي مسألة مهمَّة من حيث البنية التحتية للقصة. عاد أسامة بالثلج وضغطت عايدة عَلَى زر الكمبيوتر فَعَلاَ صوت الموسيقى ونسي الكلّ السؤال عن رأيها فِي القصة.

لحقتُ بعادل فِي الشرفة. كان يستند إِلَى الإفريز ويبحلق فِي نقطة ثابتة فِي الظلام. علَّقت عَلَى طراوة الجو وردَّ عادل بإِيماءة رافعًا رأسه إِلَى السماء كأنما يختبر صدق تعليقِي. كان القمر مكتملاً والسماء صافية. هممت أن أقول شيئًا آخر لكني أحجمت وسألته أن يشعل لِي وله سيجارة ففعل ورحنا ندخن فِي صمت. قبل أن تنتهي السيجارة لحقَتْ بنا عايدة، ناولت عادل كأسًا وقالت: "إِخص عليك! معقولة تزعل! فعلاً كنت عاوزة أعمل مفاجأة. إِيه يعني القصة مَا

عجبتش، اكتب غيرها. تعالى يَا أخي، تعالى، الناس تاخد بالها". قلت فِي سري: أَنَا أخذتٍ بالي! لكنها لم تكُن تعتبرني من "الناس"، كانت بحديثها هذا تؤكد لِي أن عادل هُوَ الكاتب وتشركني فِي السخرية منه بخبطة واحدة. عاد عادل من الشرفة يحمل كأسه، وانصرف بعد قليل بحُجَّة أن زوجته اتصلت بِهِ وتريده فِي أمر هامٌ.

كان عادل هُوَ أقرب أصدقاء عايدة إِلَى قلبي. كنت أغار من علاقة أسامة بعايدة، وأتحفَّظ عَلَى شخصية حسام، وأتحسَّب من لقاء كريم، أما عادل فكان دمثًا عطوفًا لاَ يكاد الناس يلاحظون وجوده فِي مجلس عايدة، لكن مجرَّد حضوره بيننا كان يطمئنني. فكرت أني لست الضحية الوحيدة فِي لعبة "الحب والمصادفة" الَّتِي دخلناها راضين أو مضطرِّين مع عايدة، كان هُوَ أيضًا ضحية عَلَى طريقته، فحُبُّه لَهَا وصداقته الطويلة معها لم يكونا موضع نقاش أو شكٌّ من جانبه، كأنه كان يستعذب تعذيبها لَهُ. كان دائمًا هُنَاك، فِي قلب حياتها، مثله مثل كتاب قديم وضعته تحت رجل ترابيزة مكسورة ليستقيم توازنها، أو أيقونة دقيقة الرسم علَّقَتها عَلَى حائط ونسيَتْها.

عدت إِلَى البيت فِي ساعة متأخرة، كان زوجي نائمًا أمام التلفزيون فلم أوقظه ولم تكُن بِي رغبة فِي النوم. جلست أمام الكمبيوتر وذهني محمَّل بصور من السهرة وأصوات وأطياف متواترة تتعاقب عَلَى عقلي بِلاَ منطق، كأس ويسكي بالصودا كانت كفيلة بلف رأسي وحرماني النوم. ألحَّت عليَّ ذهني تفاصيل قصة عادل القصيرة، وكنت متفقة مع كريم فِي اعتبارها قصة رديئة، لكني حزنت لمشهد الهجوم عليه والسخرية منه رغم أنه واحد من الأصدقاء المقرَّبين، وتوقعت أن يحدث هذا لنا جميعًا فِي حضورنا وفي غيابنا، فِي بيت عايدة العامر بالمفاجآت. ذكَّرَتني القصة بمسرحية ماريفو "لعبة الحب والمصادفة"، بحثت عنها فِي مكتبتي

فلم أجدها لكنِّي عثرت عليها كاملة عَلَى الإنترنت. حمَّلْتُها عَلَى الكمبيوتر قبل أن أدخل الفراش، وقرأت جزءًا منها قبل أن يأتيني النوم. أتذكرها من أيام المدرسة، لكني نسيت التفاصيل والملابسات وأسماء الشخصيات ومعظم الأحداث الهامَّة. كلّ مَا أتذكره هُوَ منطق اللعبة وتبادل الأدوار فِي علاقة سيدة ارستقراطية ووصيفتها بسيد أرستقراطي وخادمه. فِي الصباح التَّالِي ترجمت فقرة من المسرحية ونسختها بخطٍ منمَّق عَلَى ورقة مصنوعة من عيدان الأرز ووضعت الورقة فِي مظروف كبير حَتَّى لاَ تنثني وخرجت.

كانت عيادة عادل بوسط المدينة تقع فِي الدور الأول فوق مقهى وحلواني "خارينوس". كنت أحبه كثيرًا هذا الْمَكَان وَلاَ أزوره إِلا نادرًا لصعوبة صف السيَّارة فِي الطريق. يقارب عمر المقهى مئة عام، ويتميز ديكوره الداخلي بتشكيلات جدارية تميزها خطوط وزخارف الآرت ديكو النباتية والهندسية. العتمة الَّتِي يُشِيعُها الزجاج المعشَّق بألوانه الزرقاء والصفراء والزيتية عتمة محبَّبة، والفراشات الكبيرة بأجنحتها الأرجوانية والْجَعَارِين المدكوكة الداكنة الَّتِي تتسلق أغصان السَّرْوِ والسنديان تثير فِي النفس أحاسيسَ مختلطة من الانبهار والخوف. ينشغل رُوَّادُهُ بتأمل الرسوم وألواح الزجاج الَّتِي تُشعِرُهم بهيبة وتُضفِي عَلَى الْمَكَان سحرًا حَتَّى يأتي الجرسون بفنجان القهوة الإكسبرسو والكرواسان الساخن بالجبن اللذَين اشتهر الْمَكَان بتقديمهما.

طعم القهوة مر، رائحة الزبد فوَّاحة، ملمس الكرواسان هش. جنة صغيرة تتفتح مع كلّ رشفة. يتفتت الكرواسان بين شفتَيَّ وتطفو كسراته عَلَى سطح القهوة وحول الفنجان. يأتي الجرسون ويروح، يتبادل معي عبارات لاَ تتغير: "شرَّفتينا يَا فندم، فينك من زمان؟ نورتي المحل، أي أوامر تانية؟". طلبت منه أن يأتي لِي بعلبة

سجائر "روثمان جولد"، وولاعة. قال من "عينيًا الاتنين". أحب هذا التعبير، أعتبره أكثر التعابير المهذبة رِقَّة وتواضعًا. يجعلني بِلاَ تردُّد ألتفت إِلَى عينَيْ قائله وأشعر بامتنان لقدر مَا هِيَ غالية أعين كلّ إنسان مِنَّا عَلَى نفسه. كان المظروف الكبير مستقرًّا تحت حقيبة يدي عَلَى الطاولة. أفتحه وأطمئن عَلَى محتواه وأعيده إِلَى مكانه. القهوة والكرواسان والسجائر وشجاعة تدبُّ فِي أوصالي وَأَنَا أغادر الْمَكَان متجهة إِلَى عيادة عادل، بِلاَ موعد سابق، بِلاَ ضرورة طبية، للمرة الأولى منذ سنوات.

كانت العيادة مليئة بالمرضى ورائحة ديتول تنبعث من كلّ ركن فِيهَا. أبلغت السكرتيرة باسمي وقلت إِن الأمر عاجل ولن يأخذ وقتا طويلاً. تحدثت السكرتيرة عَلَى الهاتف الداخلي ثم أدخلتني عَلَى الفور مبدية اعتذارها لفتاة بدينة تجلس فِي صالة الانتظار قريبًا من باب غرفة الكشف. قالت إِني طبيبة زميلة الدكتور عادل وإِن المقابلة لن تطول. هزَّت الفتاة كتفيها بعد أن تَفَحَّصَتني بنظرة عابرة وبدا أنها اقتنعت بموعد العمل حين رأت المظروف الكبير فِي يدي. ثم عادت لمطالعة مجلة موضة عَلَى غلافها صورة لنجمة سينما فائقة الجمال شديدة النحافة. رحَّب عادل بِي ترحيبًا كبيرًا وسألني عَلَى الفور عن صحَّتي، وعندما اطمأن قال ضاحكًا: "ليكي وَحْشَة، فينك؟ شغلتيني عليكي!"، مشيرًا إِلَى أننا كُنَّا مَعًا بالأمس فقط فِي بيت عايدة. أجبته أنها زيارة صداقة قصيرة، وأنِّي فكرت فِي قصته الَّتِي قرأتها عايدة بالأمس وذكَّرَتني بأيام المدرسة، وسألته إِن كان قد قرأ مسرحية ماريفو. تَجهَّم قليلاً وأجاب بالنفي، قال: "سمعت عنها فقط، لكن عنوانها من العناوين الكلاسيكية الجذَّابة". أمَّنْت عَلَى كلامه وقلت: "فعلاً، حدوتة رومانسية ومضحكة فِي الوقت نفسه، رومانتيك كوميدي". قال: "آه" وراح يتفحص وجهي مستغربًا

الحوار، عاجزًا عن تبريره لنفسه. قلت بعد برهة عندما شعرت أن الْكَلَام قد انتهى: "الظَّرْف ده عشانك". ثم قمت متعللة بضيق الوقت. تناوله وفتحه وهو يوصلني إِلَى الباب ويتساءل فِي نفسه لِمَاذَا جاءت ولِمَاذَا ترحل هكذا. أخرج ورقة الأرز وقرأ النَّصَّ المكتوب عليها وأعاد قراءته وَأَنَا أتمتم: "الجملة من مسرحية ماريفو". هز رأسه وشكرني ووعدني أنه سيقرؤها بالكامل قريبًا، مضيفا: "يمكن أتعلم!". أوصلني إِلَى باب العيادة وقال: "سلامي إِلَى زوجك العزيز"، وأجبته: "سلامي للمدام"، وانصرفت فِي اتجاه السُّلَّم فيما عاد هُوَ إِلَى الداخل وصوت الفتاة البدينة يصل إِلَيَّ وهي تقول بلكنة غريبة: "كيفك عمو؟"، وهو يردُّ: "ماشي الحال"! جملة عايدة المفضَّلة.

"المسافة الَّتِي تفصل بيننا، آلاف الأشياء الَّتِي تعترض طريقك، الرَّغبة فِي أن يجعلك الآخرون تتعاطف معهم، الملاهي والمغريات الَّتِي يلتقيها رجل فِي مثل مركزك، كلّ شيء من شأنه أن ينزع من قلبك الحب الَّذِي تحدِّثني عَنْهُ بِلاَ رحمة. ستسخر منه رُبَّمَا عند خروجك من هُنَا، وعندك كلّ الحقّ، لكن ماذا عنِّي أَنَا؟ لو تذكرت هذا الحب، ويا لخوفي من عذابه، فمن ينقذني من الذكرى؟ من يعوِّضني فقدي إِيَاك؟ ومَن ذا الَّذِي سيختاره قلبي ليحلَّ محلَّك؟".

(٧)

عندما أتناول حبة منوِّمة لاَ تزورني الأحلام. أنام كأنِّي لم أنَم من قبل، أقول لمن يسألني فِي الصباح: نمت زي الطوبة. الحبوب المنوِّمة تتسلل إِلَى الجسد عبر المخ وتخلِّف شعورًا بالعمق والثِّقل، أنام كأنِّي كيس من الرمل يغطس فِي برميل من الزيت وأصحو شبه دائخة من تأثير الحبة. عيب هذا النوع من النوم هُوَ غياب الأحلام، أو ندرتها. لذلك لاَ أتناول الحبوب إِلاَّ عند الضرورة. رغم أن فترة الحلم تحتل عادة مَا يوازي ساعة ونصفًا فقط من ثماني ساعات، إِلاَّ أنِّي أفضِّل النوم القلِق بمصاحبة الأحلام عَلَى النوم الهادئ دونها. حبوب منع الأحلام تغلق الباب فِي وجه الزائرين. تجعل الحلم جدارًا أملس تنزلق عليه الصور ببطء وتسقط فِي بحر النسيان بِلاَ رجعة.

الحلم الأزلي وقوع فِي حفرة. أكون عَلَى الرصيف عادة، وفجأة تتحول البلاطات الأسمنتية الكبيرة إِلَى ممرٍّ من الحشائش تغوص فِيهِ قدمي. أتقدم خطوة أو خطوتين ثم أسقط فِي حفرة تشبه القبر، مستطيل داكن ورطب تترعرع عَلَى حافته الحشائش الخضراء ويبدو منسَّقًا بعناية، متسقًا مع جلال المشهد. تكون الحفرة المستطيلة محفورة فِي أرض طينية أو يكون الرصيف رصيفًا ثم يتحول إِلَى قبر. أصحو من الحلم وأتذكر أنهم فِي أوربّا يدفنون الموتى فِي الحدائق ويحوِّلون المدافن إِلَى متنزهات وسط المدينة. فِي الحلم أقع دائمًا فِي نفس الحفرة، وأَصحو عَلَى الوقعة. لاَ أرى نفسي أبدًا فِي الحفرة، أراها فقط فِي أَثْنَاءِ السقوط.

كانت عايدة تقول إن الإنسان يقع فِي الحب دائمًا وبشكل متكرر، عَلَى فترات متباعدة أو متقاربة، لمُدَد تطول أو تقصر. تقول إن النساء لاَ يصرِّحن بذلك من باب العِفَّة، والرجال يعترفون بالحب من باب الزهو. وكنت أصدقها حين تقول إن الحب القليل فرض عَلَى النساء، الحب الكثير حقٌ مكتسَب للرجال. كأنها أمور طبيعية، وُلدنا بِهَا، والحقيقة أننا نشأنا وتَرَبَّينا لنتقبل الحال عَلَى مَا هِيَ عليه. أحياناً لاَ يدوم الحب سوى عدة أشهر، وأحياناً أخرى يمتد بامتداد العمر.

وكنت أرى أن حبًّا واحدًا كبيرًا لاَ يحدث إلاَّ نادرًا، نادرًا بشكل يكاد يغيظني شخصيًّا. كأن الأقدار ضدِّي فِي هذه المسألة، وكأن كلّ روايات الحب الرومانسية الَّتِي قرأتها فِي صباي كاذبة. فنادرًا مَا عايشت من حولي حبًّا كبيرًا ومؤلمًا إِلَى حدّ المرض، حبًّا لاَ تعترضه قصص حب صغيرة متفرقة وتخدش صفاءه واكتماله. حتَّى إني لم أعد أصدق أن يستمرّ الحب واحدًا ثابتًا، ورفضت مع مرور الوقت فكرة الاكتمال فِي الحب. كانت عايدة شاهدة عَلَى هذا التحوُّل فِي حياتي، تعرف بالتفصيل مشاحناتي الزوجية وتعرف أن سببها لم يكن ماديًّا، كان سببها اختلافي مع زوجي فِي تفسير معنى الحب، ورفضه التامَّ فكرةَ الوقوع المتكرر الَّتِي كانت عايدة تؤمن بِهَا إيمانها بالقدر.

أمَّا زوجي فكان يتدخل فِي الحديث باعتباره أستاذ فيزياء يهوى التفاسير العلمية والمنطقية ويُقحِمُها فِي كلّ حديث فتزيد من ثقل المناقشة وتعطيها طابعًا تربويًّا. يقول إن الإنسان يقع فِي الخطأ أيضًا، ولو أردنا تعبيرًا أكثر أخلاقية، يقع فِي الخطيئة. ثم يردف قائلاً: بشكل مقصود أو غير مقصود، يؤدي الوقوع إِلَى سقوط أحياناً، ذلك أن الوقوع والسقوط مختلفان، كأن يقال مثلاً "يقع فِي

الحب" و"يسقط فِي الرذيلة". وكنت أجيبه بأن خفقة القلب تمضي سريعًا، سريعًا لدرجة أن الإنسان مِنّا يتصور أنه كان يحلم، ويصحو من الحلم عَلَى بلادة الواقع المعتادة. وأقول لاَ بُدَّ أن يخفق القلب من آن إِلَى آخر، لأشخاص لم نكن نتخيل مجرَّد رؤيتهم، ولأشخاص نتوهم أنهم مسك الختام، ولأشخاص بين بينين لاَ نعرف تحديدًا لِمَاذا خفق القلب لرؤيتهم. كنت أفكِّر فِي خفقة قلبي ذلك المساء فِي بيت عايدة وَأَنَا أواسي عادل بمجرَّد الوقوف بجواره فِي الشرفة، أو خفقة قلبي وَأَنَا أسلِّمه المظروف عَلَى أمل أن يدرك أن صداقةً عميقةً تجمعني بِهِ.

يقول زوجي إن القلب السليم يتشاور مع العقل السليم ويصلان مَعًا إِلَى قرار صائب، والقرار الصائب من وجهة نظره يتعلق بالبعد عن الشبهات سواء كانت شبهة الحب أو شبهة الانجذاب العاطفي كأنه يقفل باب النقاش فِي حديث لاَ يدري عواقبه. وأقول مردِّدة آراء عايدة: مهما كانت العواقب تظل خفقة القلب هذه بلاَ ثمن. من حقِّ كلِّ إنسان أن يخفق قلبه مرات، أن يقع -لو أراد- مرة أو مرات، والإرادة عليها المعوَّل فِي قياس حجم الوقعة ومداها وإمكانية مداواة الألم الناتج عنها. من حقِّ الإنسان أن يحب الالتصاق بأخيه الإنسان، أن يسعى إِلَى تلك المعرفة خارج حسابات الزمن والمسافة. يسألني زوجي: خارج حسابات العرف والتقاليد والأخلاق؟ وعندما أتجنب الردَّ، يقول: لم أعد أعرفك، تغيرتِ كثيرًا. فأقول فِي نفسي خوفًا من إغضابه: من حقِّ الإنسان أن يقع وهو سعيد، أن يقع ويقوم ثم يقع ليقوم. عَلَى الأقل فِي الحب.

عندما أفكِّر فِي عايدة أجد أن نظريتي فِي مبادئ الوقوع والسقوط لاَ تنطبق بالضرورة عليها. فلقد سقطت من حَيَاة عايدة ومن ذاكرتها أسماء أشخاص كثيرين أحبَّتهم وأحبوها، أو أحبوها

ولم تُعِرْهم اهتمامًا. كانت تعتبرهم بقايا حكايات، نثار ذاكرة، جرفتهم الأيام كما جرفتهم عايدة للتسلية أو للتسلُّق عَلَى أكتاف هذا الحب أو ذاك أو لمجرَّد اختبارٍ قدرتها عَلَى الجذب والإغواء. أقول رُبَّمَا تلتقي كلّ هؤلاء فِي الجنَّة، عندئذ سيتوفر لديها الوقت لتصنع لهم أرشيفًا فِي الذاكرة الأبدية. تضحك حين أحدِّثها عن الجنَّة وتقول إن الذاكرة ليست حيوية فِي الجنَّة. ذاكرة الحب بالذات ستتحول إِلَى حفرة كبيرة تتسع باتساع الأحلام، باتساع الزمن. يقع فِيهَا الناس جميعًا، تقع فِيهَا الأحداث جميعًا، بقدر هائل من الديمقراطية أو من العشوائية أو من كلتيهما مَعًا. الذاكرة الَّتِي كانت فِي الأرض تشبه يدًا مخرومة تتسلل منها الريح ويسيل منها الماء ستتحول فِي الجنَّة إِلَى أرشيف هائل من الأحداث المجسَّدة، المتكررة، وقد تطبق عَلَى أنفاس الناس وتحوِّل نعيمهم إِلَى جحيم. تبرِّر تشاؤمها بالحكمة الشهيرة الَّتِي تقول إن أحدًا لم يأتِ بعد سقطة الموت الأخيرة ليحكي لنا مَا جرى وما كان للبشر ولذاكرتهم. وتردف بأن سقطة الموت ليست وقوعًا، لأن الإنسان لاَ يقوم منها أبدًا.

قرأت فِي اليوميَّات جملة لأوسكار وايلد يقول فِيهَا: "فِي كلّ مرة يحب فِيهَا المرء، تكون هِيَ أول مرة يحب فِيهَا. اختلاف المحبوب لاَ يغيِّر شيئًا من تفرُّد العاطفة. يجعلها أكثر كثافة فحسب. لاَ يمكننا أن نعيش تجربة حب عظيم سوى مرة واحدة عَلَى الأكثر، وسرُّ الحَيَاة هُوَ إِعادة إِنتاج هذه التجربة كُلَّمَا أمكن ذلك". كانت هذه الجملة تختتم الوصف المطوّل الَّذِي سجَّلته عايدة فِي اليوميَّات لقُبلتها الأولى لحسام كأنها كانت تبرِّر لنفسها وقوعها المفاجئ فِي الحبِّ، أو بالأصحِّ تبرِّر تكرار الوقوع بنفس الطريقة عَلَى نفس النوع من الأشخاص وبتنويعات تختلف باختلاف المواقف. كتبت معظم هذه الفقرات كأنها رسالة إِلَى حسام. كانت تكتب مسوَّدة للرسالة قبل

إرسالها ثم ترسلها بالإيميل أو تنسخها باليد وتضعها تحت باب شقته فِي غيابه. عندما يعود يجد كومة من الرسائل فِي انتظاره، يقرؤها وحده أو يقرآنها مَعًا. رسائل مصحوبة برسم أحيانًا وأحيانًا أخرى مجرَّد شذرات بِلاَ رابط، نثار من قراءات عايدة، ملاحظات عن الشلَّة وعن أحداث لم يشهدها حسام، وصفات طبيخ سهلة تصلح لأعزب مثله، أو مشاعر حب مقتضبة تسجلها عَلَى عجل من أي مكان تتذكره فِيهِ وتتمنى لو كان معها فِي تلك اللحظة.

لم أصدق أن تتخلى عايدة عن أنانيتها وتخلص فِي الحب إِلَى هذا الحد، لم أصدق أن يكون حسام هُوَ الشخص الوحيد المعنيّ فِي تلك الرسائل. كنت بعد كل قراءة أتخيل أنها تكتب لشخصين أو ثلاثة، من بينهم أسامة بِلاَ شك وكريم عَلَى الأرجح. كانت تعتني بكتابة الرسائل عناية خاصَّة، تعيد الجملة الواحدة عدة مرات، تشطب كثيرًا وتكتب فِي هوامش الكُرَّاس ملاحظات تنوي إضافتها فِي رسالة قادمة كأن كرَّاس اليوميَّات قد تَحوَّل إِلَى معمل للرسائل الَّتِي ترسلها بعد التنقيح.

نقلتُ فِي الكُرَّاس معظم الرسائل الَّتِي تصف فِيهَا عايدة بداية العلاقة مع حسام، وكنت نادرًا مَا أصحح غلطة فِي اللغة أو أضيف حرفًا ناقصًا، فقد كانت تلك الفقرات من أكثر فقرات اليوميَّات اكتمالاً وعذوبة. كان لكلّ رسالة عنوان، وكلّ عنوان يرد فِي نهاية الرسالة لاَ فِي بدايتها مصحوبًا بتاريخ. فضَّلتُ وضع العنوان فِي المقدمة لتسهيل القراءة وحذف التاريخ، خصوصًا أن عايدة كانت أحيانًا تكتب عدة تواريخ لنفس الرسالة، فرسالة القبلة مثلاً تختتمها هكذا: "رسالة القبلة ١٩٨٩ صيف ٢٠٠٩ قبل أن يمر العام الحالي بقليل". ورسالة الهجر تنتهي بتاريخ متخيَّل: " قبل الحرب الأخيرة سنة ٢٠١٩". أما الرسالة البيضاء فعنوانها تليه كلمة "أورلاندو"

وليس لَهَا تاريخ. بالبحث عن معنى الكلمة عَلَى الإنترنت وجدت أن لفيرجينيا وولف رواية بهذا الاسم، قرأتها فِي مَا بعد وشاهدت الفيلم المأخوذ عنها إخراج سالي بوتر البريطانية ثم اشتريت عَلَى الإنترنت بوستر الفيلم الَّذِي تظهر فِيهِ الممثلة تيلدا سوينتون بملابس تشبه ملابس هاملت وهي تقف عَلَى أرضية تشبه لوحة الشطرنج وعلقت البوستر الجديد محل بوستر "المرأة الَّتِي تشرب". أورلاندو شخصية جذابة، نصف رجل نصف امرأة، تتغير كما تتغير المواسم وتمضي حياته أو حياتها مثل خيط مجدول يصل الأزمان بعضها ببعض ويتحدى الفناء. فِي الفيلم، بعد مشهد القبلة، يصحو أورلاندو فِي قرن غير القرن، فِي فراش غير الفراش، ليجد نفسه قد تحول إِلَى امرأة. الرسالة البيضاء بِلاَ تاريخ، تمد خيطًا بين عايدة وفرجينيا وولف، خيطًا سريًّا من سنتمنتالية القرون الماضية.

رسالة القبلة

مضت أسابيع عَلَى لقائنا. كأننا كُنَّا هُنَاك أمس فقط، فِي بيتك الخالي إِلاَّ من حقائب وصناديق، حين قبَّلتَني. بل أَنَا الَّتِي قبَّلتك. وكانت سيَّارة فِي انتظارنا أسفل العمارة. سيَّارة تعيدني إِلَى بيتي وتحملك إِلَى القرية فِي أول زِيارة منذ عودتك. أعرف أنك كنت عَلَى عجل، لكني رشفتك حَتَّى النهاية، حَتَّى ذابت شفتاي بين شفتيك. قبلتنا الأولى منذ سنين، تزيد رُبَّمَا عَلَى خمس وعشرين، أو تنقص. كيف طالت الأيام لتصبح سنين؟ وكيف مرَّ الوقت هكذا علينا؟ هل تَغَيَّر ملمس شفتيَّ الآن وقد قاربت الأربعين؟ لن تعرف

أبدًا. هِيَ قُبلتنا الأولى. الأولى منذ وقعت عيناك عليَّ وَأَنَا جالسةَ تحت العنب. تذكر؟ كان ثعبان صغير يتدلى من التكعيبة وكنتَ أنتَ أولَ مَن رآه، وقفزت لتدقَّ رأسه بعصا فِيهَا مسمار. من أين أتيت بالعصا؟ وماذا جاء بك تحت تكعيبتنا؟ لاَ أعرف. رأيتني فِي مَا بعد أبكي بين ذراعي أبي وخالتي –مذعورة– ترفس العصا بقدمها رفسات صغيرة لتتأكد من زوال الخطر. رأيناك تمضي بموازاة سور السكة الحديدية وتختفي من حيث جئت وأبي يصيح داعيًا لك بالصحة.

كُنَّا فِي شقَّتك الجديدة قبلتني واحتضنتَني فبدأتُ أبكي. قلتَ: لاَ تبكِي. وقلت: ابكِي لتستريحي. لاَ أذكر أيهما خطر ببالك أولاً. الأهمُّ أنِّي بكيت فعلاً، طويلاً. لاَ أدري من أين تنسكب الدموع، وَلاَ أدري سببًا واضحا للبكاء. ربتَت يدك عليَّ بحنان أذابني. أذاب الجبل الراسخ، صار الجبل ندَفَ ثلج أبيض وسحاباتٍ بلون النعناع. ذراع تلتف حول كتفي وذراع تحتضن رأسي، تربت يدك عَلَى شعري. وتقبِّل شفتاك شعري وجبيني. قلت لك إِن ملمس خدك ناعم. قلت لِي إِني ملكتُك. رفعت نحوك وجهًا بلَّلَته الدموع، وكان طعم الملح يتسلل إِلَى شفتيك، ومذاق السُّكَّر يحفر طريقه إِلَى قلبي. بِلاَ مقدِّمات، بِلاَ مقاومة. العمر كله لحظة هِيَ الأبد. والغريب، الغريب، أنِّي قبلتك كأنِّي أقبِّلهم جميعًا، كلَّ مَن أحببتهم قبلك، كلَّ من أحبوني قبلك. رائحتهم فِي أنفي، مذاق قُبلتهم فِي فمي، ملمسٍ خدِّهم عَلَى يدي. كأنَّك هم ولكنك أنت. لحظة فائقة فِي نشوتها، كأنِّي بينكم كما لم أكُن من قبل. كأنِّي ملك لكم جميعًا. كأنِّي لم أزَل أحبهم كما أحببتهم دائمًا، أو كأنَّك تعيدني إِليهم وأنت تجذبني نحوك. تسحبني إِليك بحنان، فتعيدني إِليهم بخفة.

رفعتُ رأسي نحوك ببطء وبحثت شفتاي عن شفتيك. تركت الرَّغبة تعوي بعيدًا، فِي حجرة النوم الملاصقة لنا. لن نرتكب مَا نتوق إِلَى ارتكابه. فقط سنترك الشوق يأخذنا الآن حيث يريد. ببطء تركتك تقبِّلني. بل أَنَا الَّتِي قبلتك. بشوق أعوام فائتة قضيناها فِي ضبط الإيقاع، إيقاع المسافة الفاصلة بيننا وبين من نحب. بإحساس من يموت غدًا أو من مات أمس وفاتته أشياء. بتلك السعادة الناقصة الَّتِي جعلتنا ندرك فجأة أننا نكره النقص. نكتمل فِي قبلة.

رفعت رأسي نحوك ومرَّت عيناي أولاً عَلَى شفتيك، ثم مرَّ عليهما أنفي، ثم وجدَت شفتاي شفتيك وذابت الدموع بينهما. لحظة فائقة، هدأ فِيهَا قلبك واستكنت إِلَى صدرك. كيف تصنع القبلة عمرًا؟ كأن الزمن لاَ يمر، يبقى معلقًا فِي الفراغ، نُثَارَ صور ثابتة بِلاَ ماضٍ وبلا مستقبل. زمن لاَ يمرُّ، يبقى. ببطء رفعتُ وجهي نحو شفتيك ومرَّتْ أناملي عَلَى خدك، كأني عرفتك الآن، وكأنك عرفتني. وكأن للقصة القديمة معنًى لم ندركه منذ البداية. ندركه الآن وقد انتهت القصة القديمة وبدأت واحدة أخرى، جديدة، غامضة. أغمض عينَيَّ عَلَى وجهك وأذوب بين شفتين هما أنت. وَأَنَا بينهما لستُ أَنَا، بل نحن.

أردت أن أفتح أزرار قميصي لتطير الفراشات. أردت أن أترك لصدري المحمَّل بخبرة الشوق حرية التنفس. كأن جسدي لم يعد جسدي. كأنه يتحرر من كلِّ من أحبوني وأحببتهم، ليعود إِلَيَّ، جسد بنت فِي العشرين. جثوت أنت أمامي ورأيتهم يجثون معك. مثل عابد فِي محراب، التقطت شفتاك نهدي. كأنك تصلح مَا فسد من لذَّة. ثانية، ثانيتان، تمتص الحلمتين وينتصب جسدي بين يديك. ثم ببطء تنزلق يدي عَلَى الأزرار، تغلقها من جديد. ليس الآن. الآن كلنا هُنَا، أَنَا وأنت وهم. وغدًا قد لاَ يأتي أبدًا. تعود شفتاك إِلَى شفتي

وترشف دموعًا جديدة، ساخنة. دموع رغبة وإحجام. ليس شيطانًا هذا الَّذِي يجمعنا، بل مَلَك رحمة. لم نكن قد سكرنا بعد، لم نكن قد عرفنا اللذة بعد. ولم نكن نسمِّي مَا بيننا حبًّا عَلَى أي حال. كُنَّا نسمِّيه صداقة. بعفوية كنت أجهلها، استقرَّ قلبانا عَلَى أن يلتقيا فِي قبلة. لم نخطِّط لَهَا، نصبت لنا فخًا ونحن أحببنا أن نقع فِيهِ. لاَ ندم عليها، لاَ ندم عَلَى سرقة السعادة من براثن الزمن. لاَ ندم، ترجوني. لاَ ندم، أعدك.

لم أعد أذكر مَا حدث بالترتيب. قبَّلتك، ثم قلت إنك أحببتني. سألتك: فِي أقل من أسبوع؟ تعجَّبت: لم يمضِ سوى أسبوع واحد؟! ثم فتحتَ أزرار قميصي ببطء، ثم قبَّلتني ومسَّدتَ بيديك نهدي، ثم حكيت لك حكاية قصيرة أربكتني، ثم قبَّلتك، ثم احتضنتني، ثم أغلقت بابا خلفي وفتحت بابًا للهواجس، ثم تهادت السيَّارة عائدة إِلَى البيت، ثم قبَّلتك فقبَّلتني. أم حدث غير ذلك فِي ترتيب آخر لن نذكره أبدًا؟

غرفة وحيدة ملاصقة لنافذة الصالة المطلة عَلَى النهر. لم يحدث مَا كُنَّا نتوق إليه. ظننا أن الرغبات العنيفة قد ماتت مع الزمن وحلَّت محلَّها خبرة الضجر والحيطة والانتظار. خفنا أن تتكسر اللحظة الفائقة عَلَى جدار الخبرة والتكرار، خبرة الجسد باللذة وتكرارها الملول. لاَ تقل إنِّي فقدت تلك الجذوة، دعني أَنَا أقُل. لاَ تقُل إنك ترى السنين قد مرت عَلَى جسدي. دعني أَنَا أُرِكَ بلاَ خجل. سأريك علامات الزمن وتعاريجه، غدا أو بعد غد، لو عدتَ إِلَيَّ أو عدتُ إليك. قبلة أخيرة تبلل شفتَيَّ بالندى قبل أن نفترق عند الباب. كفَّت الدموع منذ برهة، اطمأن قلبي إِلَى قلبك. تعاهدنا فِي سذاجة، والعهد يذكرنا بما مضى من حب لم يكتمل. لن يكتمل، يبدأ حب جديد، لن نسمِّيه حُبًّا، سنسمِّيه صداقة... فرحة أبدية.

لم أقل لك آنذاك إن الحب الحقيقي لَهُ وحده، هُوَ أول مَن امتلكني، أول مَن اكتشف غصن الذهب فِي باطن الأرض ولم يصدِّقه أحد. قالوا معدن رخيص، قال بل ذهب! مَا زال نحيفًا، شاحب الوجه، كما عهدته. مَا زال جالسا بيننا لكنك لاَ تراه. لاَ تسألني عَنْهُ، سأحكي لك حَتّى لو لم تسأل. يومًا ستعرف أنه بيننا وأنّي بينكما. عندها سيعرف جسدي جسدك، قد يأتي الحب أو لاَ يأتي لكن جسدي سيعرف جسدك ويختبر اللذة بين ذراعيك. الحب مسألة أخرى، دعني أخبرك عَنْهُ فِي حينه. الآن تفصل بيننا شروط الغواية، الشرط الأول الاكتمال، وَأَنَا لن أرضخ الآن. انتظر، سنصل مَعًا يومًا.

رسالة الماء

أكتب لك بعد أن أخذت حمَّامًا ساخنًا. وقفت تحت الماء المنهمر دقائق قبل أن أزيح الستار عن جسدي وأخطو خارج البانيو. دقائق من النشوة الخالصة، صمت يحملني إِلَى الداخل، عيناي مغمَضتان عَلَى صورتك. يغمرني الماء، تغمرني أحاسيس هِيَ شمس ونور وظلال. كأني عدت جميلة من جديد. أتحسس جسدي وأتخيل أنك معي، يدي ويدك مَعًا، عَلَى نهد البنت النحيفة الَّتِي لم تفلح بعد فِي أن تكون امرأة، عَلَى بطنها المتكور، عَلَى تعاريج خصرها، عَلَى أعلى الفخذ. الفرق بينك وبين الآخرين خبرتهم بجسدي، جهلك بِهِ. لم تلمسني، حلمت بِي فقط. لو لم تلمسني رُبَّمَا كففت عن الحلم أيضًا. قرار لاَ أعرف مصدره اتخذته

وحدي، لاَ رادع للرغبة الجنسية الْمُلِحَّة سوى الرَّغبة فِي أن نظلَّ صديقين، أن نكتشف الحالة دون أن نتلامس. قرار ضد الرَّغبة، ضد الطبيعة، متسق فقط مع تصور خلقته لنفسي فجأة، فرضته عَلَى نفسي فجأة، تصورٌ عن الحب، الأخلاق، اللذة في اكتمالها، لاَ أعرف تحديدًا. أمهلني بعض الوقت لأفكر. لنقُل إنه تصوُّر ضد إلحاح الطبيعة، مع استمرار الغواية عَلَى طول الخط.

لو ظل الحب حيًّا، آه لو ظل حيًّا! أجفف جسدي ببطء وأتذكر أن أسامة كان يحب أن يجفف لِي ظهري بعد الحمام ثم كفَّ عن هذه العادة بعد سنة من زواجنا. اختفت من حياتنا عادات كثيرة كانت تعطي لقاءنا طعم النعناع. ذابت حبة النعناع وخلَّفت وراءها طعمًا مُرًّا، كان حبنا مُرًّا، نقول إننا نحب وجسدانا لاَ يطيعان. أصبحت أخجل من وجوده معي فِي الحمام، بعد الحمام. أخجل من نظرته ورغبته كلَّمَا رآني عارية. هُوَ من يعرف هذا الجسد، علَّمته إياه ركنًا ركنًا، وهو من يراني جميلة، ست البنات. لكني لم أعد أنصت إلَى إطرائه ولم يعُد جسدي يصغي. تعود أن يكون جميلاً تحت عينيه، بين ذراعيه. ثم لم يعُد يتوق إلَى مَا يعرف. كفَّ عن الإنصات. يأكل آليًّا، يشرب آليًّا، يحصل عَلَى اللذة آليًّا. يبقى الحب يرفرف بجناحين ضعيفين، يعيد إحياء الجذوة كلَّمَا عنّ لَهَا أن تخبو. أحيانًا، فِي وحدتي، أتمنَّى لو أننا لم نتركها تخبو. ثم أضحك من سذاجتي، أضحك بصوت عالٍ أمام المرآة، وأكره نفسي الأمَّارة بالسوء. أكره الملل والوقت والعادة ورواسب التكرار. أكرهها وأغمز بعيني وأضحك عاليًا. تعرف هذا النوع من الخبل؟ حين تنظر إلَى نفسك فِي المرآة فتراها تنظر إليك؟

نتفق أولاً: لأنك صديقي ولأني أشتهيك، سأحكي لك عن حبي لأسامة وسأترك الزوج الثاني خارج حكايات الحب. تفهم أني لاَ

أستمتع بالحديث عَنْهُ. هُوَ أبو الولد، والولد تركته لَهُ وهربت. لن تصدِّق أن أنزع من قلبي الأمومة، أن أتركها تعوي مثل ذئبة منتفخة عَلَى قارعة الطريق. أمومة لاَ تليق بِي، تليق بصديقاتي رُبَّمَا، لكني لست مثلهن، أمومتي أقرب إِلَى الأبوَّة، ليس من معانيها الالتصاق، بل التخلِّي والاكتفاء بهبة البنوَّة. الزوج الثاني كان غشيمًا. لاَ أعرف لِمَاذَا أحببت الارتباط بِهِ، لاَ أعرف ماذا اجتذبني إِليه، رُبَّمَا اجتذبتني بكارته، ورُبَّمَا لأني كنت قد مللت شقَّة أسامة الضيقة الَّتِي تركها لِي بعد طلاقنا، مللت الحساب ومصروفات البيت الشحيحة والديون المتراكمة. الثاني كان يمتلك من المال قنطارًا. ذهب، هدايا، سفر، وأخلاق عالية، عالية لدرجة تفوق الوصف. كنت أول امرأة فِي حياته، شيء لاَ يحتمله عقل إِنسان. فِي البداية أعجبتني لمسته الخشنة آخر الليل. بعد ثلاث سنوات لم أعد أحتمل، نفَس قصير فِي الحب وفي الفراش وأنانية أماتت رُوحي. لكن دعنا من المبالغات، لم يكن سيِّئًا إِلَى هذا الحد، كان عطوفًا وغبيًّا، تفهم مَا أقصد؟

حتَّى تجربة الأمومة مرَّت مثل حلم. كنت غارقة فِي تعاسة الزواج الثاني وفكرة الطلاق تراودني كل يوم، أردت أن أجرب استقرار الأمهات. ثم أفقت من حلم الاستقرار عَلَى وجه طفل جميل يبكي ويطلب مَا لاَ أقدر عَلَى منحه لَهُ، حب ووقت ورعاية. عدت إِلَى شقتي القديمة لمجرَّد أن أهرب من الولد وأبيه، زاد ارتباطي بالشلَّة والناس والورق والألوان والحرية. تضحك؟ لاَ تضحك. تُضحِكني حين تضحك. خذ سيجارة وأبعد عينيك عنِّي وَأَنَا أكتب. نعم، الحرية شيء حيوي جدًّا سأتحدث عَنْهُ فِي مَا بعد. لن أطيل عليك، انفصلنا بهدوء وبلا رغبة فِي الانتقام. كأنه يفهم السَّبَب فِي طلب الطلاق، رغم أنِّي مقتنعة أنه لاَ يفهم شيئًا. لم يلحظ مثلاً نمو

علاقتي بكريم فِي تلك الفترة، أو تغاضى عنها، لاَ أدري. كان غشيمًا حتَّى فِي المعارك.

لو لمستني رُبَّمَا يصحو جسدي، رُبَّمَا يعرف خبرة لم يعرفها من قبل. لكننا سنحرم أنفسنا منها الآن. بقرار أَنَا صاحبته وليس لك يد فِيهِ. قبَّلتَني. بل قبَّلتُك. وعرفت بما لاَ يقبل الشَّكّ، أن جسدي سيتوق إِلَى جسدك، وأنِّي سأحرمه الرَّغبة. تسألني لِمَاذَا؟ وتثور عَلَى منطق النساء الخالي من أي منطق. تقول إِني أشبههن جميعًا، لاَ فرق بيني وبينهن، كأنك تتحدى الرجل بداخلي، لكنك تعرف أن منطق الغواية لاَ يهزمه الزمن. تهادن وتقترب وأُبعِدُك بنظرة. أقول لك Not so soon. لِمَاذَا؟ سأجيبك فِي مَا بعد، فأنا نفسي لاَ أعرف لِمَاذَا. تحت الماء الساخن، هذا الصباح، رأيتك رغم عينيَّ الْمُغمَضتَين، تحسَّستَني ودخلت. أقول لك الحقّ، انخلع قلبي. انخلع من مكانه لمجرَّد أن خيالك مر من هُنَاك، من بين خيوط الماء المنسكبة عَلَى رأسي. كأنَّك أمل أو وعد أو نداء مجهول سيعيد اكتشاف مَا ترنح وتهاوى من جسدي العاطل.

بعد الدُّشِّ، شاي بحليب وتوست بالزبد ومربَّى البرتقال. أكتب لك خطابا رغم أن بيني وبينك ساعات معدودات بالسيَّارة. أنت الآنِ فِي قريتنا، وَأَنَا أتمنَّى لو آتي إِليك، أطرق بابك وأدخل. لاَ لشيء إِلاَّ لأسألك كيف كانت ليلتك. هل نمت جيدًا؟ هل حلمت بِي؟ هل قبَّلتَني هكذا فِي الحلم، وأقبِّلك لعلك تتذكر طعم قبلتي المبلَّلة بالرَّغبة. الحلم أحلى أم الحقيقة؟ دلع البنات الَّذِي لاَ أحبه، دلع البنات الَّذِي تطالبني بِهِ ليشتدَّ شبَقُك. تقول إِن صوتي وحده بهذه البحة وبنبرة ست البنات الَّتِي تحبها كفيل بأن يشعل نارًا فِي أعضائك. بيني وبينك هاتف لاَ أهوى استخدامه، يشعل الجذوة وَلاَ يخمدها. الكتابة أقل شبَقًا من الهاتف. أكتب إِليك وأقرر أن لاَ أرتدي أحسن ملابسي للقائك. أخاف

أن تقبّلني ثانية. أخاف أن أفرح ثانية. أخاف أن ترتفع قدماي عدة سنتيمترات عن الأرض وأنت تحملني وتطيّرني كالفراشة. أخاف من السقوط. من الحبة قبة، تقول. من الحبة قبة، أجيبك بخبرة الفراشات.

لوهلة تصورت وأنت تقبّلني أن رجلا وامرأة يسكُنّان جسدي. رأيتك بعينَيْ تلك المرأة ورأيت نفسي بعينَيْ ذلك الرجل. أعرف أنه بداخلي. مَا أعطيه لك هُوَ مَا أخذته منك، رأيت نفسي فِي عينيك جميلة، ورأيتك فِي عيني وأنت تتفرج عَلَى جسدي، بجفنين مُغمَضَين وقلب يقظ. تقتنص قبلة أخرى من عمق سحيق لم تبلغه شفتاك. وتمرِّر لسانك عَلَى شفتيَّ، تبللهما بعطر اشتريته من مطار بعيد، وتعود لترشف منهما رشفة أخيرة. تبتعد عني قليلاً وأفتح عينيَّ ببطء لأراك تبتعد، تتأمل وجهي مزهوًّا بلحظة انتصار لن يشهده غيرك. غيرنا. نعرف أن حروبًا صغيرة فِي الخارج مَا زالت دائرة، لكننا كسبنا حربًا كبيرة دارت هُنَا، ضد الزمن، ضد المسافة، ضد الملل الَّذِي نعرفه ونفلت من براثنه من وقت إِلَى آخر، هكذا. بالحب المفاجئ، والشوق. نتوهمه، نحب أن نتوهمه ذلك الشوق. نحب أن يفاجئنا من حيث لاَ ندري. أخضعناه مئة مرة، أخضعَنا مرة واحدة، قبلة هِيَ الأولي والأخيرة. الرجل فينا هُوَ الَّذِي قرَّر الانصياع، المرأة فينا هِيَ الَّتِي قادت الدفة. أتظن أني لم أرِها تلك المرأة بداخلك؟ أتظن أني لم أُحببْها كما أحببتك؟ أقبّلك كأني أقبّل امرأة هِيَ أنَا وأنت، تقبّلني كأنَّكَ تقبّل رجلاً هُوَ أنَا وأنت. تحسم ذراعاك القويتان المعركة لصالح الرجل، يحسم نهدي الملتصق بصدرك المعركة لصالح المرأة. لوهلة نتذكر الدور وننتشي. وبعدها نعود إِلَى سابق عهدنا بأنفسنا، نتبادل الأدوار ونهوى تبادلها. ثم نخاف ونحْجِم ونحسب ألف حساب كأنها أول مرة فنبتعد وننتظر.

رسالة بيضاء – أورلاندو

أتخيل نفسي وحيدة فِي غرفة بيضاء، ناصعة البياض، غرفة مربعة، بِهَا نافذتان مستطيلتان تصلان بين إِفريز السقف والسفل الخشبي العريض المطليّ بالأبيض. الأرضية من الخشب السميك، ألواح عريضة بيضاء مصقولة. تتوسط الغرفةَ مائدةٌ قديمة من خشب الورد الثقيل ومقعد بذراعين، من الخشب أيضًا. تتأرجح فوق الطاولة فراشات بيضاء من الورق الشفاف مثبَّتة فِي السقف بخيوط نايلون متباينة الطول. يصل بعضها إِلَى ارتفاع ذراع من سطح المكتب وبعضها الآخر يقترب أكثر من السقف. أجلس لساعات بمواجهة النافذتين أو أعطيهما ظهري. أجلس وأرسم اسكيتشات لامرأة تقبّل نفسها فِي مرآة. تأتي أنت من آن إِلَى آخر، تقبّلني فِي رقبتي. نمارس الحب عَلَى المقعد، تعرف أني أحب هذا الوضع. نتكلم بين قبلتين ونعود للعمل، تصنع لِي فنجان قهوة وتلف لِي سيجارة دون فلتر، تخرج الورق من علبة معدنية أنيقة والتبغ من كيس تبغ مستورَد. السجائر الملفوفة أقلّ ضررًا، تقول. أكتب وأرسم وأحبُك أكثر من ذي قبل، لكنك عندما تغيب عني لاَ أفتقدك كثيرًا، تفتقدني أنت أكثر. تعود وتقبّلني عَلَى شعري. أدفعك بعيدًا وأنام عَلَى المقعد وأشرب القهوة وهي باردة وأدخن سيجارة أخرى وأغفو، وأصحو لأعيد رسم مَا رسمت، ويأتي الليل وأنام فِي حِضنك وَأَنَا أحلم برسم نفس المرأة، نفس المرآة.

الغرفة لِيس فِيهَا سوى مقعد وطاولة، والأرضية الخشبية تؤلمني لكني أنام بين ذراعيك. أغفو، ساعة، ساعتين. أصحو وَلاَ أجدك. ذهبتَ، تركتني نائمة. الصباح يأتي وتأتي أنت ومعك قهوة وتوست بالزبد وتذكرتان لأوبرا "توسكا". تعرف أني أهوى الأوبرا

وَلاَ أحب الذهاب وحدي. نذهب مَعًا ونبدو مثل طائرَين غريبين حَطًّا عَلَى سطح المبنى. نتسلل من كوة فِي الحائط ونستقر تحت السقف مباشرة. أرخص مقعدين فِي قاعة الأوبرا. الليلة ننام عَلَى صوت ماريا كالاس وهي تغني "توسكا". المغنية الَّتِي شاهدناها عَلَى المسرح صورة باهتة من كالاس، لاَ تعجبنا، نسخر منها ونعود بشوق إِلَى الغرفة البيضاء، كأننا لم نغادرها قَطّ. نفس المقطع مستمرٌ، من الأوبرا إِلَى جهاز الريكوردر القديم. "عشت من أجل الفن، عشت من أجل الحب، وأبدًا لم أتسبب فِي أذى لأحد". أقول لك إني كُلَّمَا سمعت "Vissi d'arte" تصورت أنه مقطع من أوبرا أخرى، مقطع انتظار بترفلاي زوجَها. تتعجب وتضحك وَأَنَا أقسم لك إِن ثمة أوجها للشبه. وتضحك أكثر حين أقول لك إِني كنت أستمع إِليها متصورة أنها تغني قبل الانتحار. كأن انتحار توسكا وبترفلاي لاَ يمكن إِلاَّ إِن يتشابه فِي الحالتين، فِي ذهن المؤلف عَلَى الأقل.

قبلة تُنسِيني سيرة الموت، تتلوها قبلة تعيدني بخفة إِلَى حِضنِك الواسع، والغرفة البيضاء يغمرها سحر كالاس، والظلام. لاَ أنام فِي فراشي، أنام تحت الطاولة بجوار المقعد. وأحيانًا أخرى أعود إِلَى البيت أو تُعِيدُني بالعافية. أرسم وأرقص وأقبِّلك ونحن جالسان عَلَى المقعد. أرسم لأنِي أحب والحب خط، وحركة. أرسم وَأَنَا هُنَا وأنت هُنَاك. مسافر لكني أراك تأتي فِي الصباح بفنجان القهوة والتوست. متَى عدت؟ لم تَعُد، رأيتك فقط بعين الخيال. وقبَّلتك قبلة فرنسية. المشهد كله أوربّي، لاَ يمكن أن تتوفر غرفة بيضاء كهذه فِي مدينتنا. أليس كذلك؟ تقول: نعم. وتُصِرُّ عَلَى تحقيق الحلم. تجد الغرفة لكنك لاَ تجد تذكرتين لحفل الأوبرا. تجد التذكرتين لكنك لاَ تجد الطاولة الخشبية اللازمة للرسم. تجد المقعد لكنِّي أتركه شاغرًا.

أتعبتك معي، لاَ شيءٍ يريحني، لاَ شيء أبدًا. لذلك لاَ أرسم حقًّا، كما ترى. أدَّعي فقط أني أرسم. أو أرسم وأُلقِي الرسم فِي سلة المهملات. تستغرقني بحضورك وبغيابك، تمامًا كما جاء فِي كتب الحب. وَأَنَا أكره أن أكرِّر نفسي، أن أضيع من نفسي، بسبب رجل. لكنِّي أكفُّ عن الرسم وأنتظرك عَلَى خشب الأرضية المصقول، كأني فِي حلم. وأصحو لأجد نفسِي نائمة فِي فراشي كما تعودت كلّ ليلة والغرفة البيضاء رسم فِي كرَّاس، صفحة عارية أتخيلها غرفة وأنت لست فِيهَا. وأنت كما تعرف مسافر دائمًا. وَأَنَا كما تعرف، وحدي دائمًا.

كلّ يوم أرسم اسكتشًا جديدًا لبيتك وأتخيلك وأنت تتجول فِي الرسم وَأَنَا معك سعيدة بالبيت، بمنظر النهر، بالهواء الساري والوسائد. بيتك أكبر مَعْرِض للوسائد رأيته فِي حياتي، أحجام مختلفة وملمس مختلف تتدرج أغطيتها من نعومة الحرير إِلَى خشونة الصوف. أرسل لك كارتًا عليه صورة وسادة، تفصيل من لوحات "أنجر" الجزائرية. وأشتري كروتًا أخرى أنوي آهداءك إِياها تباعًا: كولاج من نسيج بدوي من طاجيكستان، رسم لوسادة عَلَى شكل قلب أحمر تجلس فوقها قطة رومية... بحثتَ عن مثيل لوسادة "أنجر" فِي رحلة من رحلاتك فِي فرنسا وعدتَ بِهَا إِليَّ فخورًا بمقتنياتك الجديدة. وسادة تُجلِسُني عليها وتلتقط لِي صورة مثل صور الأوداليسك. تحب حركة يدي فِي الصورة، ومحاولة تجنب النظر إِلَى الكاميرا مباشرة، ظهري لَهَا، ووجهي يلتفت ناحيتها وَلاَ ينظر إِليها. أبدو ممتلئة من عند الخصر، أقول لك ذلك عَلَى استحياء. تحتضنني بعينين عاتبتين، وتروح تتأمل الصورة لعلك تجد مبررًا آخر لإقناعي بعكس مَا أفكر فِيهِ. تقول: أجمل مَا فيك تلك الاستدارات، معجزة! تُضحِكُني، تسلِّيني، ألتفت إِلَى ظهري أتأمله

فِي المرآة لعلِّي أرى نفس مَا ترى. وفي الحلم، أراك تأتيني من الخلف وأصحو عَلَى إحساس بذكَرك منتصبًا داخلي.

نفس الخجل كنت أشعر بِهِ مع أسامة أيضًا. ولولا أنِّي أعرف مقدار حبكما لِي لظننت أنكما تبالغان فِي الافتتان بجسدي النحيف هذا، جسدي الَّذِي تُخجلني عيوبه. نسخة من الصورة لِي ونسخة لك، يبتسم أسامة حين يراها ويغار قليلاً لأنها فعلاً تشبه لوحات "أنجر"، يشعر أن الصورة إيروتيكية ويتخيل مَا حدث بيننا قبل التقاطها. يشعر أن الصورة شبَّبَت بِي بين القبائل لكنه لاَ يقول شيئًا وَأَنَا أمتنع عن مشاركة القبائل فِي قصتنا، لاَ أحد يعرف بما بيننا غيره هُوَ، كريم يخمِّن وعادل يتساءل وهي تصمت. الكل يتحفظ، يعرفون أننا لسنا مجرَّد صديقين لكنهم لاَ يجدون اسما يطلقونه عَلَى مَا بيننا.

نسيت أن أسألك إن كان لغرفتي البيضاء باب. لم أعُد أذكر كيف كُنَّا ندخل الغرفة، أذكر فقط أني تخيلتها مربَّعة كاملة التربيع. بيضاء وشفَّافة مثل مكعَّب الثلج. وفسيحة، يدخلها الضوء من كل جانب والرسم فِيهَا يأتي وحده مثل الوحي، بلاَ عناء، خصوصًا وأنت تقبِّلني فِي عنقي وتتلو عليَّ أشعارًا تعلَّمتَها فِي صباك. لن نفتح النافذة الآن حَتَّى لاَ تطير الفراشات. أجلس عَلَى المقعد وأرفع رأسي إِلَى السقف، أراها تطير بخفة كأن خيوط النايلون لم تعُد تشدُّها إِلَى أعلى، وأرى نهرًا أزرق وزورقًا وملائكة مصنوعة من صفائح الفضة الرقيقة وشجرة صفصاف، وأغفو. أصحو بين ذراعَي أسامة، يقبِّلني، أغمض عينَيَ وأفكر كم أحبه وكم يحبني وكم مرَّ من سنوات عَلَى طلاقنا لم تنَل شيئًا من حبي لَهُ، من ولعه بِي. أقول لك إني أدخلته الغرفة البيضاء معي، وأراك تغار، تغار

وترفض الإنصات إِلَى حكاية أسامة، ترفض حضوره بيننا. ألستَ رفيقي؟ ألسنا عَلَى طريق المحبة سواء بسواء.

رسالة بطعم النعناع

لِمَاذَا قررّْتَ السفر؟ يَا إِلهي! لِمَ تركتَني؟ رحلة وراء أخرى، تعود وتحمل وردًا لشقّتي، لاَ أحد يحمل وردًا لشقتي غيرك. تجعلهم يغارون. وتشك صاحباتي فِي نواياك وأضحك منهن، وماذا تكون نواياك وَأَنَا الَّتِي تمسك الدفة؟ علاقة جنسية أخرى لن تصنع فرقًا بينك وبين الآخرين، سنصنعه هذا الفرق بأيدينا، بالانتظار. أول تجربة انتظار فِي حياتي، تعرف ولعي بالإنجاز وسهولة تسلل الملل إِلَى نفسي. من الناس ومن حكايات الحب الخائبة ومن الوقوع بسذاجة فِي علاقة لاَ تستحق. كأنِّي كنت رجلاً فِي مَا مضى، واليوم أشعر أني امرأة من جديد... امرأة تتريث! لاَ تضحك، ودعك من حكمة الرجال المهووسين بأجساد النساء، أنصت إِلَى حكمتي أَنَا، لعل صداقتنا تطول وتشتدُّ.

فِي إيميل قصير أرسلتَه إِلَيّ من فيينا، قلتَ إني أمسك بالخيوط كلها فِي يدي وألعب بك كأنَّك عروسة ماريونيت. كنتَ غاضبًا أو عاتبًا، أو كنتَ تلاعبني لاَ أعرف. عندما عدت من السفر وجدتني أصعد إِلَى شقَّتك وأحتضنك بذراعين مفتوحتين وعينين نهمتين لوجهك، لملمس ذراعيك، لقوة صدرك وهو يضمني بحنان. انتظرتك أسبوعًا كاملاً، وعدت حاملاً أشرطة موسيقى وعروسة

ماريونيت تشبهني. ضحكنا وأنت تخرجها من صندوقها وتمددها عَلَى وسادة "أنجر". جذبتَني إِلَى غرفة نومك، لم أقاوم. كانت إرادتك أقوى من إرادتي، وشرطك المضمر إِما أن تعود إِلَيَّ بعد كلّ رحلة مشتاقًا إِلَيَّ وإِلَى جسدي، وإِما أن أفقدك إِلَى الأبد. لن أخبرك بما حدث بيننا، أنت تعرف، جسدك يعرف. كأننا كُنَّا عَلَى موعد، بعفوية وباتفاق لاَ يخطئه اللحم انضبط الإِيقاع. لاَ يشبهك أحد، لاَ تشبه حركتك عَلَى جسدي حركة أحد. ضغطت أسفل بطني بخفة، بحركة دائرية، بأصابع مبتلة، ابتعدت وعدت ثانية، ببطء وثبات التصقت بي، أخذت نهدَيَّ بين يدَيك، لاَ تقبِّلني، تبتعدُ بنصفك الأعلى عن صدري، وتدعوني أن أتنفس بعمق. عندما آخذك بداخلي، أستبقيك حتّى أشبع منك. هل مضت خمس دقائق؟ ماذا لو جعلناها عشرًا؟ ماذا لو انتظم الكون بعد عشر دقائق؟ بعد أن انتهينا، وضعت حبة نعناع فِي فمي وقبّلتَني. مررت الحبة بلسانك إِلَى فمي ورسمت دائرة حول نهدي. مسّدت فخذي بيدك وبيدك الأخرى عبثت بشعري القصير الملاصق لعنقي كأنك تحتضن جسدي بأكمله من أسفل لأعلى. قلت بصوت خافت إِنك لاَ تحبني، لاَ تحبني أبدًا؟ يعجبني الرجل الكاذب وأنت تعجبك المرأة الفريسة. مارسنا اللعبة أمام المرآة، عَلَى صوت موسيقى هادئة، وامتدَّت الموسيقى مَا يكفي لإِذابة حبة النعناع فِي فمي. ثم عدنا مرة أخرى، بخيالات أكثر شبقًا، أكثر حرية من خيالاتنا المنعكسة عَلَى المرآة. قلتَ: تخيلي أنك امرأة فِي بار، وأنك ترتدين شورتًا من الجلد الأسود، وعصابة سوداء عَلَى عينيك. تخيلتك تجلس عَلَى كرسي مرتفع وتمسك سوطًا تنوي أن تضربني بِهِ. اعتليتكما متأوهة، هامسة باسمك كأنَّك سيدي ومليكي، وانهمرت عليك كما ينهمر السيل عَلَى جبل، للمرة الثانية، بنفس النهم نفس اللذة.

لِمَاذَا أردتني أن ألعبِ دور امرأة البار؟ هل ذكَّرتُك بنساءٍ غيِري؟ لم أسألك حينها، لكني أسألك الآن. تذكر هذا السؤالِ وأجبني عَنْهُ حين يصل إِليك الإِيميل. قصيرة رسالتي لك اليوم، لكني أفتقدك بشدة منذ عدت إِلى البيت من دونك... منذ ساعتين كاملتين!

رسالة الهجر

تَغيَّر نمط حياتي منذ قررتَ معاودة السفر. وجدتَ العمل المناسب الَّذِي يجعلك دائمًا بين بلدين وطرتَ مثل الفراشة تصحبك دعواتي. لم أنتحب، لمِ أتردَّد، لم أتبعك. تعرف أني أُحِبُّ ممارسة التخلِّي، حتَّى معك. لكني أنتظر منك رسالة دائمًا. تأتي كيفما تأتي، بالبريد العادي أو الإِلكتروني. من سان باولو، من برلين، من كاليفورنيا، من باريس، من فينيسيا. ماذا تفعل فِي كلّ بلدان العالَم دُونِي؟ تتعلم الطيران لاَ شك. وَأَنَا لن أترك البلد من أجلك، تعرف ذلك وتسافر. حريصة أن أؤكد لك ذلك كُلَّمَا التقينا. فِي البداية، قبل تلك اللحظة الفائقة، كُنَّا نلهو بالكلمات، نتداعب، نجرِّب الإِحساس ونهزُّ رأسنا مستغربين. بعد ذلك، فجأة وبلا مقدِّمات، انهمرت دموعي عَلَى خدِّك وكنتَ تعرف أنها لحظة لن تتكرر. مرت الآن سنة بأكملها عَلَى تلك القبلةِ ودقةُ القلب هِيَ هِيَ، لم تتغير. كنت أنتظر أن يقلّ وهجها وأتحدَّى نفسي بالملل فتفاجئني نفسي بالشوق إِليك. قُل لِي لِمَاذَا عاد حنينك للسفر؟ لِمَاذَا الآن؟

فِي اليوم الواحد، ستٌ مرات أنادي بواب العمارةٍ، لسبب وبلا سبب، ويأتي. أتوقع أن تكون معه رسالة منك، لكني لاَ أسأله. نتحدث فِي أمور أخرى تافهة، أفتح أيَّ موضوع، أعطيه شيئًا للأولاد، أطلب منه إصلاح حنفية المطبخ، أرسله لشراء عنب. الثلاجة فِي الصيف تمتلئ بفاكهة أشتريها فقط ليصعد إِلَى شقتنا الْبَوَّاب فأعرف لو كان ساعي البريد قد جاء أم لم يأتِ بعد. عندما يصل البريد، يأتي مهرولاً دونٍ أن أناديه. يعرف حين يرى وجهي. يعرف فرحتي بالخطابات. حَتَّى فواتير التليفون تُفرِحُني. ليس مثل خطاباتك والكروت البوستال، ولكن مجرَّد طقس فتح الخطاب يفرحني، كأنَّك أنت من أرسل إِلَيَّ خطاب شركة الكهرباء: عزيزي العميل، حبيبتي... مرات ترسل إِيميلاً فِي الصباح، فأنتظر خمسة آخرين فِي أَثْنَاءِ النَّهَار. لو اختلف التوقيت بين بلدينا أترك الشاشة مفتوحة لساعات، حَتَّى تأتي الرسالة ومعها رنةٌ مميَّزة. تكون الثانية صباحًا هُنَا التاسعة صباحًا فِي طوكيو. لاَ شك عندك وقت لتكتب لِي، لكنك عندما تسافر إِلَى تلك البلاد البعيدة تصبح فجأة مشغولاً. تصبح كتاباتك مقتضبة، مثل التلغراف.

أُغرِقُك بالرسائل والكروت مَا إِن تُبلِغني بعنوانك الجديد. تضيع رسائلي أحيانًا لأنك تكون قد سافرت، تركت أوربّا وطرت إِلَى أمريكا. وأحيانًا أخرى تتبعك الرسائل، تترك ظرفًا عليه العنوان الجديد وتطلب من صاحبة البيت أن ترسل إِليك مَا يصل من خطابات بعد رحيلك. أو تترك الظرف لحارس المبني أو مدير الفندق أو الجارة الَّتِي دعوتَها عَلَى العَشاء، كلهم يُحِبُّونك. يضعون الرسائل والكروت فِي الظرف ويرسلونه إِليك. تتبعك كلماتي مثل ظِلِّك. ذات مرة، احتفظَتْ صاحبة فندق بكارت مني وصل متأخرًا. أعطته إِياك بعد وصوله بشهور. فتحَتْ الظرف ثم أعادته إِليك

عندما حللتَ عَلَى نفس الفندق مصادفةً. قالتْ لك إن صاحبة هذا الكارت لاَ بُدَّ مخبولة. لاَ أقلّ وَلاَ أكثر. بفضول سألتَها، بثقة أجابتك: مخبولة لأنها تقول إنها قضت مع صديقها أسبوعًا رائعًا عَلَى شاطئ البحر (كنتُ قد أرسلت إليك صورة من شاليه أسامة) وإنها لم تكف عن حبه وَلاَ عن التفكير فيك. نصحتك أن تبتعد عني، قالت إن حبّك لي مثل الإدمان، يجب أن تعالج نفسك منه حَتَّى تشفى. قالت: يجب أن تتزوج وتنجب أولادًا، فكيف بك وقد تعديت الأربعين يَا مسيو ولم تتزوج بعد؟ تضحك أنت وتجيبها بأنك فِي الثالثة والأربعين، تتأوه صاحبة الفندق مفتعلة الاستياء وتتحسر عَلَى شبابك الَّذِي ضاع بِلاَ ولد وَلاَ زوجة. مسيو سنيبا بوسيبل! امبوسيبل!

بكلّ اللّغات مَا يحدث لك مستحيل! أن يحدث لرجل مثلك ثريٍّ وحرٍّ، مستحيل... ألم تدرك ذلك بعد؟ بل أدركته ذات مساء ونحن فِي بيتك الخالي إِلاَّ من بعض الصناديق وحقائب السفر. أدركتَ أنك كنت تنتظرني، هذا كلّ مَا فِي الأمر. نبتعد ونعود لنلتقي كأن أيامًا لم تمرَّ، نتكلم، أنت تتكلم أكثر مني، وننصت إِلَى صوتينا ونشكو من الرطوبة والحَرِّ ونضحك من الشكوى المستمرَّة ونستمع إِلَى الموسيقى فِي التيراس الْمُطِلّ عَلَى النهر ثم نخرج، نحضر معرضًا للرسم، وسَرْعانَ مَا يصيبنا السأم، نلعن الفن الرخيص ونعلو درجةً أو درجاتٍ بحسب زجاجات البيرة الَّتِي نشربها. نخرج من المعْرِض ونمضي فِي الليل بِلاَ وجهة محدَّدة ثم نعود إِلَى بيتك أو إِلَى بيتي. أحيانًا نكون أَنَا وأسامة مَعًا وندعوك للصعود إِلَى شقَّتِي فتأبى ظنًا منك أنك تتركُنَّا عَلَى راحتنا، وأسخر من تصوُّراتك وأُلِحُّ عليك أن تأتي لكنك تُصِرُّ وتعود وحيدًا فِي الفجر إِلَى بيت يخلو إِلاَّ من أثاث بسيط ووسائد. تحادثني عَلَى الهاتف، تعاتبني عَلَى ضياع الليلة، وأعدك بزيارة غدًا. لكنك فِي الغد تكون قد سافرت.

غيابك يصيبني بمرض لاَ أعرف اسمه وَلاَ أعرف توصيفًا لَهُ. لكنِّي فِي طريق البحث وفي طريق العثرات الكثيرة الَّتِي أقع فِيهَا راضية أو عن غير وعي، أواجَه بعَرَض من أعراضه وأتعجب. كنتَ تتفرس فِي وجهي أحيانًا وتقول: إنتِي كمان عندك حاجة! لكنك لاَ تسمِّيها، تقصد "حاجة" تشبه "المرض"، وحدسك لاَ يخطئ. "بطيئة هِيَ كلّ الينابيع العميقة. عليهم أن ينتظروا طويلاً حَتَى يعرفوا مَا الَّذِي يسقط فِي أعماقها". توقفت عن التنفس برهة بعد قراءة هذه الجملة. مسرح روماني شاسع فِي فضاء فسيح، بِلاَ ممثلين وبلا جوقة، وَأَنَا وحدي فِي الشمس أتفرجِ عَلَى تلك الشساعة وأحسُ بعينيك من أعلى تتفرجان عليَّ، وبعينِي ماهي والآخرين تتفرج علينا من طبقة أعلى وأعلى، وهكذا حَتَّى نصل إِلَى السماء. مرض لاَ أعرف مدى خطورته ولست متأكدة إن كان فعليًّا نوعًا من الباثولوجيا، لكنه لاَ شك يمرِّر طعم الحَيَاة، من المرارة، هُوَ خليط من عويل مُرّ وتفاؤل ساذج يُشِعُ من عمق القلب في لحظات فائقة كتلك اللحظة، لحظة قراءة جملة الينابيع. من أعراضه الشعور بسعادة باهتة، سعادة الوجود دومًا عند مفترق الطرق.

رسالة الحنين إِليك

الثامنة والنصف صباحًا. أخرج فِي نزهة وأصطحبك معي. أتمنَّى لو أسلم نفسي إِليك إِلَى الأبد، لو أتنازل عن كلّ مخاوفي القديمة والقادمة فقط لأكون فِي حِضْنِك الآن، ملعون كلّ غدٍ من دونك. أين أنت؟ نائمًا مَا زلت؟ سور طويل يحدُّ الحديقة، يكشف

أشجارها العتيقة ويمنعني من المرور، هل ترى هذا السور؟ أسيرِ بموازاته كلّ صباح، نصف ساعة ذهابًا وعودة. لاَ أدخل الحديقة إِلاّ نادرًا، لاَ أحب الحدائق العامَّة، تعيسة ومنظَّمة بشكل يجعل البهجة أمرًا مفروغًا منه، لاَ يترك للبهجة فرصة أن تأتي وحدها من حيث لاَ ندري، من ركن مهجور لم تطرقه قدم أو من غصن يتدلى لم تلمسه يد. أفضِّل السير بموازاة السور، بموازاة الطريق، بين بينين، تتقاذفني أصوات السيَّارات المسرعة وأفيق من غيبوبة المشي الأوتوماتيكي لأجد نفسي قد عدت إِلَى البيت.

أخرج، من باب السأم فقط، لتمضية الوقت الفاصل بين توقيتين، أنت فِي مانهاتن الآن وَأَنَا أسفل العمارة، أفتح صندوق البريد قبل دخول المصعد، وأفتح الكمبيوتر قبل تناول قهوة الصباح. رُبَّمَا تكون قد استيقظت فِي منتصف الليل. أحيانًا أجد رسالة منك، أسطرًا شحيحة تعطيني فِي آخرها قبلة. آخذها منك وأعيدها إِلِيك مضاعفة، فِي غرفتنا البيضاء، وحدي معك. كأنِّي عَلَى سفينة، كأَنِّي أسلمت لك قيادها، كأَنِّي لم أعد أقوى عَلَى التمرُّد وَلاَ عَلَى العصيان، لأننا قررنا أَنَا وأنت فِي لحظة صفاء أن نحيا على ظهر سفينة. السور مَا زال ممتدًّا وَأَنَا تعبت من المشي، سأعود لأفتش عن رسالتك فِي صندوق البريد أو فِي الكمبيوتر. تفهم مقدار تعاستِي حين يفرغ الاثنان من أثرك؟ لاَ يخلِّف صمتك تعاسة، بل فراغا ووحشة. "كم من الوقت مضى هكذا؟" فِي انتظارك. كيف تصنع قبلة كلّ هذا؟ تعرف أغنية أودري هيبورن، "كم من الوقت مضى هكذا؟"، تلك الَّتِي غنتها بعد أن قبَّلَها فريد أستير فِي فيلم "وجه مثير للضحك". هل تعرف هذا الفيلم؟ لو وجدته اقتنِ نسخة دي فِي دي وعُد بِهَا إِلَيَّ.

***

شاهدتُ هذا الفيلم فِي بيت عايدة. كُنَّا وحيدتين فِي شقتها، كعادتها تفضل زيارتي لَهَا عَلَى زيارتها لِي. تقول إن بيتي كلاسيكي إلَى حد الملل. وتقول إنها لاَ تحب مجالسة زوجي. وتومئ إلَى بيتها وتقول "هُنَا عَلَى حريتنا". كنت فعلاً أشعر بحرية فِي بيتها حين يخلو من الناس وينصبُّ كلّ اهتمامها عَلَى حديثنا. أحيانًا أترك نفسي عَلَى سجيَّتها وأحيانًا أخرى أتوجس من عايدة فألوذ بالصمت وأروح أتفرج عليها. صنعت غداءً خفيفًا لنا وأسدلت الستائر ووضعت الكاسيت فِي الجهاز. شاهدنا بداية الفيلم ونحن نأكل ونعلق عَلَى المشاهد الخارجية الَّتِي تدور فِي باريس. لاَ نصدِّق كيف حولت هوليوود باريس إلَى مدينة غرائبية. وعايدة تقول "very exotic" وَأَنَا أؤيِّد كلامها رغم أني لم أزُر المدينة من قبل، وأثق برأيها لأنها زارتها وأقامت فِيهَا شهرين كاملين. تشرح الفرق بين المدينة فِي الخمسينيات كما تظهر فِي الفيلم وبينها الآن، تقول إن المكتبات الصغيرة الَّتِي تشبه مكتبة الفيلم مَا زالت قائمة لكنها قليلة مقارنة بالمكتبات الحديثة الَّتِي ترتفع عدة طوابق وتتكدس بالكُتُب. ثم تصمت وتكف عن المضغ وتستغرق فِي متابعة وجه أودري هيبورن وشعرها المقصوص كاريه والخصلة الَّتِي تصنع خطًا مستويًا عَلَى جبهتها تبرز من تحته عينان واسعتان كعيني قطة وخدَّان فاتنان. بعد أن قبَّلها فريد إستير القبلة الشهيرة، وقفت عايدة الفيلم وقامت بحماس، غسلت يديها وصنعت كوبين من الشاي بسرعة وهي تحدثني بصوت عالٍ من المطبخ وعادت بالصينية وقطعتين من كيكة الجزر وجلست أمام مائدة الشاي عَلَى الأرض وأعادت ترجيع الشريط لتشاهد المشهد من أوله وتستمتع بأغنية الفيلم. كانت سعيدة مثل طفلة، كأنها وجدت فِي شخصية أودري

هيبورن فِي الفيلم مدخلاً لتفسير إحساسها بالأمان وتأكيد مشاعرها الغامضة تجاه حسام. كأن هذا كله حدث لغيرها من قبل، منذ خمسين سنة، وما تشعر بهِ اليوم امتداد لِمَا شعرت بهِ قرينتها فِي الفيلم وإن نزعت عَنْهُ صفة الزوال وأضفت عليه صفة الديمومة.

بعد انتهاء الفيلم أعلنت عايدة أن سعادتها قد تمَّت ودَعَتني إِلَى جولة بوسط المدينة. قالت نشتري طلبات عيد ميلاد أسامة. كانت تُعِدُّ للاحتفال الَّذِي دعانا إِليه أسامة فِي الشاليه فِي عطلة نهاية الأسبوع، تريد أن تشتري مفارش وأطباقًا وأكوابًا من البلاستيك، وتوصى عَلَى تورتة كبيرة لعيد الميلاد، ولو أمكن تشتري بلوزة مناسبة للحفل بشرط أن تتناسب مع لون الجيبة الكحلى الأنيقة الَّتِي عاد بِهَا حسام منِ رحلته إِلَى أمريكا وأن تشترى أَسْوِرَة ذهبية رأتها منذ أيام فِي محل مصوغات بوسط المدينة وانخلع قلبها عند رؤيتها فِي الفترينة. سألتني إِن كان معي مَا يكفي من المال وأجبتها بالإِيجاب متوجسة من السؤال ظنًا أنها تريدني أَن أعطيها مالاً لشراء الأَسْوِرَة، لكنها ضحكت بهستيريا كأنها خمَّنت مَا أفكر فِيهِ وقالت: "معي مَا هُوَ أحسن منه"، وأخرجت من حقيبتها كارت ماستر كارد قالت إِن حسام أعطاها إِياه قبل سفره. عرفت فِي مَا بعد أن ظني كان فِي محلّه، وأنها أخذت منه سرًّا مَا كان سيأبى أن يغدق بهِ عليها بإِرادته. مرة أخرى ألجمتني المفاجأة فلم أعلق عليها ولم أسأل كيف وَلاَ متى حدث هذا. سألتها إِن كان حسام سيحضر حفل أسامة، هزَّت رأسها بعنف وقالت: مش عارفة. أدركت أن عايدة مهما أحبت فلن تتورع عن الكذب وَلاَ عن سرقة من تحب وأن رغبتها الصادقة فِي الامتلاء كانت تشدُّها رغمًا عنها إِلَى ثقب هائل من الفراغ المرعب.

فِي ذلك المساء، ازدادت الحفرة التي داومت على الوقوع فيها في أحلامي اتساعًا وخرجت من جوفها الأحلام كالخفافيش ضاربة بأجنحتها ظلال الليل الداكنة.

(٨)

كان أسامة فِي استقبالنا فِي الشاليه، وصديقته الهولندية ترتدي تيشيرتا أورجوانيًا مغلقًا حَتَّى الرقبة وبلا أكمام وشورتًا ساخنًا من الجينز يزيد من سخونته تماسك إِليتيها وبروزهما إِلَى الوراء مثل أجساد الإفريقيات. خجلت من ملابسي المتأنقة حين رأيتها ترتدي ملابس البحر المتحررة. فكرت أن المناسبة تستدعي قدرًا ولو قليلا من التعقيد، وتنازلت بشيء من الحياء عن مبدأ الاحتشام الَّذِي فرضته عَلَى نفسي لسنوات في وجود الشلة. ارتديت ثوبًا من الحرير الطبيعي الأحمر، أطرافه مطرّزة تطريزًا خفيفًا باللونين الذهبي والأحمر وظهره مكشوف حَتَّى منتصفه وبه فتحتان من الجانبين مطرزتان بنفس التطريز الناعم تصلان حَتَّى الركبة. لم أضع حذاءً كعبه عالٍ، قررت فِي اللحظة الأخيرة قبل النزول من البيت ارتداء حذاء مفتوح (سابو) أضفى عَلَى مظهري مسحة من التحرُّر والبساطة.

سافرنا جميعًا فِي سيَّارة كريم، أَنَا وعايدة فِي المقعد الخلفي وحسام فِي المقعد الأمامي بجوار كريم. لم يكف كريم عن التعليق عَلَى الثوب منذ رآني أدخل السيَّارة بصحبة عايدة حَتَّى وصلنا إِلَى الشاليه. يقول إِني أصغر عشر سنوات فِي هذا الثوب، ويقول "فتَّاكة"، ويقول "أعبدك"، فيُضحِكنا عليه وعلى طريقته فِي نطق كلمة السِّرّ. كنَّا جميعًا نعرف معناها مَا عدا حسام الَّذِي راح يقلده دون فهم وينظر إِلَى عايدة ويقول: "وَأَنَا كمان يَا بيبي أعبدك"! شعرت بالامتنان لإطراء كريم، ودقَّ قلبي بعنف عندما نظر إِليَّ فِي المرآة

الأمامية وقال بصوت رقيق: "صدقيني"! عايدة ارتدت الجيبة الكحلي القصيرة وكشفت عن جمال ساقيها وتحرُّرهما من الكعب العالي بحذاء بسيط من سيور الجلد الأزرق وارتدت مع الجيبة بلوزة من الشيفون الأبيض، بِلاَ أكمام، مبطَّنة من الظهر فقط ومغلقة بصف طويل من الأزرار العاجية تمتد من منتصف الظهر حَتَّى الذيل. البلوزة شفافة من الأمام كشفت البرا المصنوع من الدانتيل الأبيض والأزرق، لكنها عَلَى الرغم من رهافتها لم تكن مثيرة بشكل فاضح. كانت عايدة فِي هذه الليلة تشبه مراهقة فِي طريقها إِلَى حفل نهاية العام، سعيدة ومنتشية وخفيفة، وحسام ينظر إِليها ويردد You look great Ida.

وصل عادل وزوجته قُبيل المغيب. أحضرا معهما التورتة الَّتِي حجزَتها عايدة. دخلا وألقيا التحية عَلَى الموجودين ثم استقرا عَلَى مقعدين متجاورين مثل ضيفين يشعران بالغربة فِي الْمكَان. كان أسامة قد دعا عددًا من المهندسين زملائه فِي الشركة، ودعا أيضًا بعض الأصدقاء الأجانب الذين انتشروا فِي أركان الشاليه وعلا بحضورهم الصياح وصدحت الموسيقى. رقصتِ عايدة مع أسامة رقصة جون ترافولتا وأوما ثورمان فِي فيلم "خلِّيك كول"، وصفق الجميع. ثم رقصَت مع حسام رقصة هادئة عَلَى أغنية للمغني كني روجرز. همس كريم فِي أذني: لسة فِيهِ حد بيسمع "ليدي"؟! وعندما ابتسمت سألني ان كنت أريد أن أرقص فاعتذرت بلطف وابتعدت عَنْهُ لأجلس بجوار عادل الَّذِي انشغلت زوجته عَنْهُ بمحادثة سيدتين من زوجات المهندسين فِي ركن من أركان الشرفة.

قبل أن تصل السهرة إِلَى ذروتها كانت عايدة نصف سكرانة، وكانت سعيدة، ترقص لنفسها، ترقص وتنتبه لبعض الأعين تتابعها من بعيد، تنسى الناس حين ترقص، تتذكرهم حين يعلو صياحهم أو

حين يصفقون. تركها حسام تفعل مَا تريد وأخذ يتحدث بإسهاب مع صديقة أسامة عن مشروع ينوى الترويج لَهُ فِي هولندا وعايدة تبادله النظرات منِ بعيد وتقترب منه أحيانًا لتقبله قبلات سريعة عَلَى رقبته مذكرة الكلّ بحقها عليه. بعد منتصف الليل بقليل، انصرف زملاء أسامة وزوجاتهم وانتقل الجميع إِلَى داخل الشاليه. شاركت عايدة فِي الرقص بعد أن خفّ شعوري بالخجل. تبارينا فِي الرقص الرائق وفي الرقص السريع، نشرب ونعود لنتمايل عَلَى أنغام الأغنية قبل أن تنتهي، وأسامة وكريم يختاران الأغنيات وعايدة كُلَّمَا تَعرَّفَت عَلَى أغنية من أغنياتها المفضّلة تقفز من مكانها وتدعوني لمشاركتها الرقص. بعد وصلة طويلة تهاويت عَلَى الكنبة وأسندت رأسي إِلَى وسادة، أنفاسي تتلاحق وصدري يعلو ويهبط وشفتاي ترسمان نصف ابتسامة تجمدت من طول اللهاث والحركة. وإِذا بهِ يهبط عَلَى من أعلى لاَ أدري كيف وَلاَ متى. لم أرَه. لم أشعر إِلاَّ بأنفاسه تمتزج بأنفاسي، شفتيه عَلَى شفتَيَّ، رائحة خمر ولفحة هواءِ ساخن، فجأة وبلا مقدمات. أمسكت بيديه، دفعته بعيدًا، قاومني بخفة وقاومته بتصميم، وادَّعى الجالسون حولنا أنهم لم يلحظوا شيئًا. لم أصدِّق أن يحدث لِي هذا، وَلاَ أن يبلغ كريم هذا الحد من الجرأة.

ذهبت إِلَى المطبخ وعدت بزجاجة ستيلا، الثالثة منذ بداية السهرة. طعم شفتيه مَا زال عالقًا بشفتَيَّ والمفاجأة تنمو وتتسع مثل بقعة زيت سقطت عَلَى الفستان. لم أكن غاضبة، كنت خائفة. كأنه أراد أن ينتزع مني اعترافًا بأني متاحة، مستهترة، سيدة تبحث عن مغامرة. متزوجة منذ أعوام كثيرة وزوجي يتركني دائمًا وحيدة. متعب من العمل، غارق فِي العمل. لوهلة ظننت أني سأستسلم لرغبة كريم وأقبل الفضيحة عَلَى الملأ. لوهلة ظننت أنه يفضح مَا

رغبت فِي إِخفائه عن أعين الناس، وَجْهَ الفريسة الَّتِي تم الاتفاق عَلَى كونها مرغوبة وصعبة المنال.

رغم ابتعادي عَنْهُ، ظل كريم يطاردني بنظراته كأنه أدرك رهبتي وخوفي وأراد أن يستغلهما لصالحه. عاد ليجلس بجواري وفتح حديثًا لم أفهم نصفه عن مشروعِ روايةٍ جديدة بطلها يدمن القراءة فِي القطارات. كان يستدرجني إِلَي فخ التواطؤ وكنت أزداد ابتعادًا خوفًا من أن يكونَ حدْسي فِي محله، من أن أكون فعلاً تلك المرأة الساذجة المنطوية الَّتِي رسموها لِي فِي خيالهم، شلة الْمُقَرَّبِين. فكَّرت فِي الانصراف وقد صوَّر لِي تفكيري أن مَا حدث يستحق الخجل من جانبي لاَ من جانبه. لكنّي كنت مشدودة إِلَى الْمَكَان بحجر هائل فِي كلّ قدم، حجر الخجل من أعينِ الناس وحجر الرَّغبة فِي استرداد ثقتي بنفسي. رحت أداري توتّري بالابتسام ومتابعة الرقص وأبحث بعينَيَّ عن عادل وَلاَ أجده، رُبَّمَا كان فِي الشرفة مع زوجته، رُبَّمَا استطعت الرجوع بصحبتهما إِلَى المدينة.

كنت أشفق عَلَى كريم أحيانًا وأشعر بالأمومة تجاهه، وأبرِّر مغامراته النسائية من منظور ضيِّق تؤثر عليه معرفتي بمعاناته الزوجية مع امرأة لاَ يحبها ويعتمد عليها لتستقيم حالته المادية. لكنّي فِي تلك اللحظة لم أكن أشعر بالشفقة، كنت أشعر بالرَّغبة فِي الانسياق. كريم أعلن رغبته عَلَى الملأ، وَأَنَا أعلنت استنكاري فِي السرّ. كأنّي أخطأت، كأني كنت السَّبَب فِي غوايته. كعادتي أتراجع أمام إِرادة الآخرين، تبهرني قوة الإِرادة لدى غيري وتلجمني. أتردد فِي الحكم عَلَى الموقف فِي حينه وعندما يهدأ بالي يكون أوان التراجع قد فات. الغريب أنّي لاَ أندم، لاَ أندم أبدًا. عندما كنت أشير إِلَى هذه الصفة كانت عايدة تقول: "أخطاء من هذا النوعِ ليست أخطاء، بل حوادث، وما يحدث يقع خارج الإِرادة أحيانًا". كنت

خائفة، خوفًا بسيطًا وثقيلاً، من نفسي، من الإفصاح عن رغبة فِي كريم لم تكن عارمة ولم تكن غائبة مسحوقة. كنت فريسة للغواية تمامًا كما كانت عايدة تقول عن علاقتها بحسام، الفرق أني متزوجة وأني أحب زوجي، والقبلة الَّتِي اغتصبها كريم لاَ تشبه القبلة الَّتِي منحتها عايدة عن طيب خاطر، والأدهى أني ارتبكت، ارتبكت إِلَى حد الهلع لأني أحسست أني أشبه عايدة، أني أخذت مكانًا كان يخصُّها وحدها في حياة كريم.

بعد قليل انسحبت إِلَى غرفة نوم أسامة وتبعتني عايدة. كانت قد لزمت الصمت وراهنت عَلَى أني سأعود إِلَى طبيعتي بمرور الوقت، لكن الرهان فشل. ورأتني أبكي كالضحية الَّتِي أكره أن أكونها. البكاء لم يكن فِي الحسبان. كنت أنوي أن أشرح مشاعري دون بكاء، بطريقتي المعتادة فِي تبسيط الأمور، أحكي وَلاَ أبكي رغم أني أعرف أن دموعي قريبة. لكني بعد الزجاجة الثالثة انسحبت إِلَى غرفة أسامة وبكيت. حكيت لَهَا أن مَا حدث لم يحدث بإرادتي، وأني مستاءة من تصور كريم عني ومن خيانته صداقتنا. قالت بتشفٍ: أي صداقة؟ هُوَ صديقي أَنَا لاَ صديقك أنت. وكانت مُحِقَّة. أعادت إِلَى ذهني حقيقة حاولت تجاهلها، حقيقة عدم اندماجي فِي الشلَّة وأن وجودي فِيهَا مرهون بعايدة لاَ أكثر وَلاَ أقل. رجوتها أن تتركني وحدي لأستريح. لم أكن أريد إفساد الحفل، وكانت عايدة قد بلغت درجة من السُّكر تجعل من الصعب عليها أن تفهم مَا أقول.

بعد قليل لحق بِي كريم فِي الغرفة وسأل بنبرة المعتذر: أَنَا ضايقتك؟ وجدت نفسي أتلعثم وأجيب: لاَ أبدًا! ووجدته يُصِرُّ ويجلس عَلَى حافة الفراش ويقول: بلاش عَبَط. ويقرِّبني منه ويقول: إحنا أصحاب. وأقول: خلاص. فيرد: طيب خلاص. ويربت عَلَى ظهري العاري وأحاول تجنُّب يده لكنه يُصِرُّ عَلَى اعتبارها "صداقة".

ببساطة يطالبني أن أعترف بشكل صداقتنا الجديد، وبخجل أجيب طلبه وَأَنَا أدفعه بعيدًا وأطلب منه أن يعود إِلَى الحفل. يقول إنه لن يعود دوني ويقول إِنه لم يكن يعرف أني أجيد الرقص ويقول إِني أرقص أفضل من عايدة، ويرجوني أن أخرج معه فأنصاع لرغبته ويحتضنني مرة ثانية عَلَى باب الغرفة ويربت عَلَى شعري ثم نخرج، وأرى عايدة رغم سكرها تنتظر فِي عمق الصالة وعيناها معلقتان بالباب، كأنها هِيَ من أرسلته، تحدِّق إلينا بتركيز لاَ يبدو منه أنها سكرت بالكامل، وتصيح ونحن نقترب منها: يَا هلا يَا هلا. وتجذب كريم من يده كأنها أمٌّ تنهر ابنها وتقول وعيناها مزروعتان فِي عينيه: إِيه؟ ماشي الحال؟

أذهب إِلَى حفلات الشلَّة بتصريح مِن زوجي. لاَ يأتي معي إلاَّ نادرًا، يقول إِننا "أنتيم" وَلاَ يحب التدخل بيننا. أحيانًا يتحدث عن عايدة بغضب ويتمنى أن أخصِّص وقتًا أكبر للخروج معه بدلاً من الخروج معها. كان شيء آخر يثير تحفظَه، لم يصرِّح بِهِ زمنًا رغم إِلحاحي، وتَجَنَّبتُ الخوض فِيهِ حَتَّى لاَ أعطيه فرصة للتدخل وحرماني من علاقتي بعايدة. يُنصِتُ إِلَى صوت أمِّه وهي تقول إِن عايدة من وسط غير وسطنا. يمتنع عن التعليق لكنه يعرف أن الفروق الطبقية ستتضح مع الزمن لاَ محالة، ستفرق شمل هذه الصحبة، وما عليه سوى أن ينتظر. لم يقتنع حين ثرتُ عَلَى تحفظات أمِّه وعلى تدخلها فِي اختيار أصدقائي وتعليقها الدائم عَلَى خروجي دُونَه، لكنه قال إِن الحقَّ معي وإِن أمه تبالغ كعادتها وإِنها أصبحت تنسى وتخرِّف أحيانًا، ثم لاذ بالصمت. راهن عَلَى المستقبل وصدق رهانه لأسباب لاَ علاقة لَهَا بالفروق الطبقية. قلت لزوجي إِن عايدة حياتها مليئة بِي وبغيري، وَأَنَا حياتي خالية إِلاَّ منه ومنها، هُوَ حبيبي وهي صديقتي، وجودهما لاَ غنى لِي عَنْهُ. لم أَقُل

لَهُ مَا كان يدور فِي ذهني فعليًا، رغم وعيي بأنه هُوَ من أحبه ولكن هِيَ من أحب رفقته. هُوَ من يفهم وهِيَ من تستفيد من هذا الفهم. تَعوَّدت أن أبقي بينهما لاهية، حَتَّى تَدَخل كريم بيننا بشكل مفاجئ ليصبح طرفًا مُهِمًّا فِي علاقتي بزوجي وبعايدة.

مع الوقت تأكد لِي الشعور المبهم الَّذِي راودني فِي الحفل، شعور التواطؤ الَّذِي جمع كريم بعايدة وأقصاني من دائرة الصداقة. حادثة الحفل أضيفت إِلَى الحوادث السابقة الَّتِي جعلت صداقتنا تتخذ منحنىً خطرًا، تحيد عن بر الأمان. لم يحدث هذا عفو اللحظة، حدث بتراكم الزمن والمواقف الصغيرة الَّتِي أعجز عن إعادة حكايتها لفرط بساطتها أو سذاجتها أو لأني نسيتها فِي زحمة الحَيَاة. كان كريم يداري اهتمامه بِي حَتَّى لاَ يُغضِب عايدة، وعندما لاحظَت هِيَ أنه يتجاهلني عن عمد ويترقب اللحظة المواتية بحدس الصياد شجَّعَته عَلَى المحاولة ووقفت تتفرج عن بعد. وهو كعادته انساق إِلَى نصيحتها وقرّر أن يجرِّب حظه برعونته المعهودة واستخفافه بالتقاليد. أدركت ذلك من نظرة عينيها وهي تنتظر في الصالة خروجنا معا من غرفة أسامة. أدركته من ملمس يد كريم على ظهري، من أنفاسه على خدي، من دقة قلبي الملهوفة وأنا أحاول التراجع أمام إرادته وتأكيد إرادتي.

ولِمَاذَا أصرَّت حماتي عَلَى تكرار رأيها فِي عايدة عَلَى مسمع من زوجي؟ هل كانت تريد لفت نظره إِلَى مَا يصحُّ وما لاَ يصحُّ فِي مَا يخصُّني ويخصُّ أصدقائي؟ هل كانت ترى مَا لم يرَه أحد غيرها، فانتبهت ونبَّهَته؟ هل حقًّا كانت تصدِّق مَا قالته، عن طموح عايدة ورغبتها فِي تسلُّق السُّلَّم؟ عن مكانتها الَّتِي تصورت أنها وضيعة ولم تجِد أبدًا عن تصوُّرِها؟ المسألة الطبقية أضحكتني، أغاظتني، كرهت حماتي بسببها، فكرت أن بصيرتها عمى، وأنها امرأة خرفة

وخبرتها بالحَيَاة شبه منعدمة كأنها لم تفارق حضنِ أبيها قَطّ. حديثها عن الأطيان الَّتِي ورثتها عَنْهُ والشَّقَّة المفروشة الَّتِي تُدِرُّ دخلاً ثابتًا وشهادات الاستثمار فِي البنك، هذا الحديث الَّذِي تمردت أنَا عليه، ردَّدَته هِيَ كثيرًا فِي وجود زوجي وفي غيابه لتؤكد انتماءها – وانتمائي بالتبعية– إِلَى طبقة الوجهاء الَّتِي لاَ يصحُّ أن تصادق أشباه عايدة. كان غيظي يزيد ويشتدُّ وهي تذكرني بفلوس الزكاة الَّتِي كانت تمنحها لعايدة بعد طلاقها الثاني، وبساعات قضتها فِي بيتنا هربًا من الدائنين، وبتواضع المنطقة الَّتِي تسكنها، وتُصِرُّ أنها غير آمنة. كانت حماتي تردِّد أن استهتار عايدة وادِّعاءها الفنَّ محاولة للخروج من طبقتها والانضمام إِلَى طبقتنا. ومَن عايدة؟ تقولها حماتي بغيظ، لتتصور أنها صديقتك وصديقة زوجك؟ ثم تنهي حديث النقمة عَلَى الفنانين الشحاتين بجملة "وتروح فين يَا صعلوك بين الملوك؟"، ونصيحة تعتبرها أهمَّ مَا علَّمته لَهَا الحَيَاة "شيل ده من ده يرتاح ده عن ده" كرهت حماتي بسبب رأيها فِي عايدة وكرهت زوجي بسبب ميراثه من جدِّه ولقب عائلته وتشدُّق أُمِّه بهما فِي كلّ مناسبة، وكرهت نفسي لأني لم أعبِّر عن احتقاري الشخصي للطبقة الَّتِي تنتمي إِليها حماتي واكتفيت كعادتي بتجنب المواجهة والترفُّع عن العتاب.

عايدة لم تسمع شيئًا من هذا، تعاملت مع زوجي فِي حدود المودَّة، وسخرت من حديث أُمِّه الَّذِي لاَ ينقطع عن جدِّها الثريِّ الأرستقراطي، وهو فِي الحقيقة صاحب مشغل لعمل الكلف والركامة. أضحكتنا عليها وعلى تشبُّثها بمجد قديم، وحذرتنا بعد آخر لقاء سريع بينهما من أعراض إِصابتها بمرض ألزهايمر. عرفت عايدة أعراض المرض بحدسها وخبرتها القديمة بالعجائز. أبو عايدة مات عجوزًا مخرِّفًا، وأمها ماتت بقسوتها عن عمر لاَ

يتعدى الستين بصحة من حديد وقلبٍ من حجر، فقر وغل وحسرة لم تفلح عايدة فِي تبديدها. أما حماتي الَّتِي لم ترضَ بصداقتنا أبدًا، فعلى وشك أن تنسى اسمي واسم زوجي، وجهي ووجهه. لاَ تعرف أن النسيان لن يضيرني، سيجعلني أقلّ حنقًا عليها. كنت أتمنى فِي الخفاء أن تنسى حماتي وجه عايدة وأن ينساها زوجي، أن يصاب جميع من يعرفونها بمرض ألزهايمر فتفلت من أسر نظراتهم، توقعاتهم، استغرابهم للعلاقة بيني وبينها. كلّ من سمع عنها أو التقاها من أسرتي يراها فِي غير مكانها، خارج القبيلة، خارج أعراف القبيلة. عيب الشؤم الزيجتان والولد المتروك لأبيه، والعيب الأكبر السكن فِي شقّة بِلاَ رجل يحمي شرفها. لكني كنت أسمع هذا الكَلاَم وأتجاهله وتزداد علاقتي بعايدة قوة لأن الآخرين كانوا يظلمونها وأنتصر لَهَا سرًّا بمجرّد استمرار العلاقة بيننا.

قضينا الليلة فِي مسامرة وضحك حَتَّى اقتراب الفجر. لم أنسَ محاولة كريم البائسة لتقبيلي وملامستي كلما سنحت الفرصة، تناسيتها وكنت سعيدة باهتمامه، بنظرة الشوق فِي عينيه كلما التقت نظراتنا، بوعد يتأكد فِي نبرة صوته أو ملمس كفه عَلَى ظهري. هواء البحر يهبُّ علينا من الشرفة يُسلِمُنا للصمت لحظات ثم يعود ويذكرنا بأن الليل مَا زال ممتدًّا وأن اليوم لم يأتِ لَهُ غدٌ لأننا لم ننم ونصحُ بعد. عادل نام عَلَى أحد الكَرَاسي وعلا شخيره وأضحكنا لأنه كان يتحدث فِي نومه كأنه يقظ. نامت زوجته فِي فراش أسامة قبل أن تدقّ الساعة الثانية صباحًا بقليل. قالت وهي تتثاءب: بقينا الفجر؟ ولم يردّ عليها أحد فانسحبت إِلَى الغرفة ونامت بعمق. لحقت بهَا صديقة أسامة قبل طلوع الصبح، ولم يبقَ سوانا من الشلّة فِي الشرفة. جلست أَنَا عَلَى الطرف الأقصى من كريم، وجلست بيننا عايدة، رأسها عَلَى كتف أسامة وساقاها ملتصقتان بساقي حسام كأنها

همزة وصل بينهما. الهواء رطب والريح تطير الموج فيصنع مَا يشبه رغوة الصابون تمتد بعرض الشاطئ وضوء الصبح ينعكس عَلَى الرمال المنبسطة بين الشاليه والبحر يلوّنها بالبني والأحمر والرمادي، وصوتي يعلو فجأة بالغناء، أكابيلا، صوت منفرد بلاَ موسيقى تصاحبه. وحيد ومنفلت ورائق. "تخيل لو لم تكن هُنَاك جنّة، سيكون سهلاً لو حاولت، لاَ جحيم تحتنا، وحدها السماء فِي الأعالي، تخيل لو أن كلّ البشر، يعيشون من أجل اللحظة... قد تقول إِني حالم، لكنّي لست وحدي. أتمنّى أن تنضمَ إِلينا يومًا، لكي يصبح العالَم واحدًا". عندما أكفّ عن الغناء، يرفع كريم كأسه فِي صحتي، أنحنى إِلَى الأمام قليلاً لأراه وألمح فِي ابتسامته شيئًا صافيًا لم ألمحه من قبل، شيئًا يقرّبني منه. تقودني ابتسامته إِلَى حافّة أسقط منها أو تقودني إِلَى شاطئ أرسو عليه. لاَ أعرف بعد، الموج يعرف، وخطوط الصبح الَّتِي تصل الأرض بالسماء ترسم فِي الأفق البعيد صورة غائمة لحورية بحر تنتظر عَلَى صخرة. تخيلت أني تلك الحورية وأنّي تنازلت عن صوتي العذب لجنيَّة البحر فِي مقابل ساقين بشريتين أطلقهما قريبًا للريح.

(٩)

كان خطِّي "مكتنزًا". لاَ أعرف كيف أصفه بغير هذه الصفة، كان قصيرًا ومستديرًا يستقر عَلَى السطر ويعلو أو يهبط عَنْهُ بمقدار بسيط جدًّا كأنه يلتف حول السطر أو يتَّحد معه. وكان واضحًا منمَّقًا، يكشف عن عنايتي شبه المرضية بالشكل، اكتنازه دليل عَلَى تحفظي وعزلتي. أكتب عادة بخط النسخ، بالحبر الأسود السميك. الصفحة أيضًا سميكة، لاَ تشف، لكنِّي أترك ظهر الصفحة خاليًا من الكتابة. أترك أيضًا ربع الصفحة الأخير فارغًا. أحب أن تكون آخر كلمة حبيسة نهاية السطر، وأن يظل السطر معلَّقًا فِي فراغ الصفحة الَّتِي تَعِدُ بالاكتمال لكنها لاَ تكتمل. أحرص عَلَى إكمال السطر بالتمام، وَلاَ أترك هوامش فِي أول السطر وفي آخره. ضد الفراغات عَلَى مستوى السطر، مع الفراغات عَلَى مستوى الصفحة. هكذا تبدو الصفحة المكتوبة بخط اليد عَلَى النقيض من صفحة الكتاب المطبوع، ناقصة ومختلَّة التوازن، بلا هوامش من الجانبين وفارغة من أعلى ومن أسفل مثل نوتة موسيقية.

صفحة اليوميَّات المنقولة لاَ تشبه فِي شيء صفحة اليوميَّات الأصلية المكتوبة بخط عايدة. كانت عايدة تهوى الشطب وتعيد كتابة بعض الجمل فِي الهوامش، وتكمل الصفحة إِلَى آخرها كأنها تقيس حجم وقيمة الكتابة بمدى اكتمال الصفحة وانتفاخها. وكانت تضع دوائر حول بعض الكلمات، أحيانًا بقلم أحمر كأنها تذكر نفسها بضرورة تغيير الكلمة أو إيضاحها. تطلق سهمًا من الدائرة الحمراء صوب الهامش وتكتب بخط سريع وغالبًا غير مقروء ملحوظة عَلَى

الكلمة أو الجملة الَّتِي أحاطتها بدائرة. يبدو خطها متعجلاً تميزه الشرطات الحادَّة والنقط الطَّائِرَة بعيدًا عن الأحرف. لم يكُن بين خطي وخطها أي وجه تشابه، وقد حرصت عَلَى زيادة هذه الفجوة بمراعاتي التنميق والتحسين فِي الخط عند نسخ الفقرات. أفكِّر أولاً ثم أكتب ثانيًا، لاَ أترك لنفسي حرية الاسترسال. فكَّرتُ لوهلة أن أعطي كُرَّاسي لناشر ليصوره وينشره تمامًا كما هُوَ، مكتوبًا باليد، بأسطر زرقاء باهتة ودُونَ الرسوم الكثيرة الَّتِي كانت عايدة تحرص عَلَى تضمينها اليوميَّات. ثم عدلت عن هذه الفكرة لخوفي أن يشبه مذكرات المراهقات أو أن يستسخف كريم شكله ومحتواه.

سئمت إعادة كتابة اليوميَّات فِي كُرَّاسي الشخصي بعد أن امتلأ ثلثه تقريبًا فقررت أن أستعين بالكمبيوتر لنقلها وتنقيحها. كان لهذا القرار دور فِي سير الكتابة، جعلني أكثر حرية فِي التعامل معها وأكثر شوقًا إِلَى التعديل والتبديل بما يتلاءم مع تصوُّرِي عن عايدة. لم يعُد يكفيني نقل الفقرات بالتتابع الزمني المفترض أو بتصور العلاقات المشار إِلِيها فِي الكُرَّاسات الثَّلاَث وسد الفراغات وإعادة الترتيب كما فعلت مع الصفحات المنقولة الخاصَّة بعمليات الإِجهاض والرسائل الموجَّهة إِلَى حسام. أصبح لتدخلي فِي الكتابة طعم يفوق طعم التلصُّص عَلَى مشاعر عايدة، طعم الولادة أو البعث. كانت الكتابة بحرية عَلَى الكمبيوتر تسمح بإِطالة عمر عايدة وتضع علاقاتها فِي سياق مفهوم. أحيانًا كان زوجي يمدُّ رأسه من الباب ويراني منهمكة فِي الكتابة والتفكير، يحدِّثني فأردُّ عليه بعد دقيقة، ويزداد غيظي منه لو سألني ماذا نأكل اليوم أو اقترح أن نخرج لتناول الطعام فِي مطعم. انشغلت بالكمبيوتر إِلَى حدِّ الهَوَس، أحمله معي إِلَى الفراش مثل حيوان أليف وأسارع بفتحه عندما

أصحو من النوم، أتأمل الفايل الوحيد المؤمَّن عليه بكلمة سر وأطمئنُّ أنه هُنَاك فِي انتظاري، فايل "يوميَّات عايدة".

ثلاث كُرَّاسات استطعت الحصول عليها قبل وفاة عايدة وقبل نهاية صداقتنا تلك النهاية المفاجئة. الأول يحتوى معظمه عَلَى تفاصيل عن علاقتها بزوجها الثاني وبداية علاقة حب قصيرة بكريم انتهت مثلما بدأت بفتور وتوتر ثم زال التوتر وحلت محلَّه مشاعر تواطؤ وخبرة بحدود كلٍّ منهما فِي الحب وأنانية مشتركة جعلت العلاقة تبدو مستقرة فِي الخانة الوحيدة الممكنة، خانة الصداقة الملتبسة من جانبها، الحب المجرد من القيود من جانبه. فِي نفس هذا الكُرَّاس إشارات إِلَيَّ وإِلَى زوجي لم أستطع أن أغفر لعايدة كتابتها أو حَتَّى التفكير فِي كتابتها، وظللت زمنًا أتخيل أنها قرأتها عَلَى كريم أو حسام أو أسامة وكشفت مَا كان يجب أن يظل سرًّا بيننا. فِي الكُرَّاس الثاني والثالث مقاطع تخص حسام. بدايات الحب خصَّتها عايدة بصفحات كاملة وتفاصيل لم تخبرني بِهَا، فيما أحاطت أسباب القطيعة بالصمت والكتمان حيث لم تَرِدْ فِي اليوميَّات أي إشارة واضحة لتلك الأسباب وملابساتها. عرفت فِي مَا بعد أن لأسامة يدًا فِي إنهاء العلاقة، كان يحمي ممتلكاته بعد سنوات من فقدانه لَهَا ويضع حسام فِي الْمَكَانة الَّتِي تليق بِهِ فِي سُلَّم الصداقة، فِي القاع. عرفت أيضًا أن حسام عندما اكتشف سرقة عايدة الماستركارد واستخدامها النقود فِي شراء بعض الملابس والمصوغات انقطع عن زيارتها وعن تسلُّم الرسائل الَّتِي ترسلها إليه تشرح فِيهَا الأسباب وتثور عَلَى غبائه وصمته. وعندما أرهقته بالرسائل التليفونية والمطاردات وافق أن يعود إِلَيها بشرط أن تذهب إِلَى طبيب نفسي. وافقت عايدة وتابعت الذهاب إِلَى الطَّبِيب والكذب

عَلَي حسام وعلى الطَّبِيب. ثم حمَّلَت حسام تبعة رعونتها بحنكة الكذابين المدمنين، وبكت بحرقة فِي حضن أسامة المفتوح لَهَا دومًا.

كان لسفر حسام المتكرر دور فِي خلل التركيبة الَّتِي علَّقَت عليها عايدة آمالها فِي الاستقرار. كان قد عاد ليستقرَّ فِي البلد ويبدأ حَيَاة جديدة، عاد بعنف ونهم المغترب متشوقًا إِلَى تكوين صداقات والانتشار فِي المحافل والحصول عَلَى اعتراف الجميع فردًا فردًا بسعة ثقافته وتَحَضُّره. لم يبخل عَلَى اجتماعاتنا بِتصوُّراته عن التغيير المنشود وَلاَ عَلَى عايدة بالاهتمام والرعاية الَّتِي كانت تحلم بِهَا. ثم قرَّر لسبب غير معلوم أن يعاود السفر كعادته فِي السابق. لم تصمد واجهة الاستقرار والانتماء الَّتِي احتمى بِهَا فِي البداية أمام الخراب المستشري والملل الَّذِي دبَّ فِي نفسه والشعور بالعجز أمام بحر هائج من المفاسد والفرص الضائعة. حاولت عايدة السيطرة عَلَى خوفها من ابتعاده عنها وادَّعَت أنها أول من شجَّعَه عَلَى ذلك. ثم بدأ العد التنازلي بين الْمُقَرَّبِين. عادل قال إِنها لن تحتمل الغياب وإِن حبها لحسام سيدمرها متصورًا أنها نفس الروح الشفاف الَّذِي يقرأ قصصه المتواضعة ويحثُّه عَلَى الاستمرار فِي الكتابة. أسامة لاذ بالصمت، وكان يعرف من عايدة قصة الماستركارد ويكتم السرَّ، وكريم لم يُخْفِ شماتته، وساعده لسانه الطويل عَلَى النَّيل فِي الخفاء من عايدة ومن حسام مَعًا. أما هِيَ فكانت ترى وتعرف رأي كلّ واحد منهم، وتسألني فِي غيابهم عن رأيي فِي حسام فأثنيها عن فكرة الارتباط الدائم وأشجِّعها عَلَى التركيز فِي عمل مَعْرِض فردي، مَعْرِض واحد فقط يصنع لَهَا سمعة وبريقًا وينتشلها من حيرة العلاقات المرتبكة الَّتِي تُصِرُّ عَلَى الوقوع فِي براثنها. تنفث دخان السيجارة فِي الهواء وتفكر بجدِّيَّة تُضحِكني وتغيظني فِي آن واحد، ثم تقول لإِغلاق باب الالتزام وفتح باب السفسطة: You may be

right, I may be crazy. طبعًا كنت عَلَى حقٍّ وكُنَّا جميعًا نتفق فِي أن عايدة ضيَّعَت حياتها فِي التخبُّط والشَّكِّ. فِي النهاية أُقِيمَ المعْرِض فعلاً، ولكن بعد وفاتها. أقامه أسامة وكريم وعادل وساعدتهم أَنَا بكتابة نص المطبوعة واختيار بعض فقرات من اليوميَّات لعرضها مكبَّرة بخط عايدة عَلَى حائط المدخل. لم أجرؤ عَلَى التصريح بكيفية حصولي عليها، ولم يُصِرّ أحد عَلَى معرفة مصدرها. كنَّا جميعًا مشغولين بإعادة صياغة سمعة عايدة الفنية وإِضفاء معنى عَلَى هامشيتها وموتها المبكر، شأن كلّ تأبين.

فاجأني نبأ وفاة عايدة مثل طعنة فِي القلب. رنَّ الهاتف، وكان أسامة هُوَ المتحدث. اتصل بي من بيت عايدة، ترددت قليلاً فِي الرد حين رأيت رقم عايدة ظاهرًا عَلَى شاشة التليفون. بعد غياب دام مَا يقرب من ستة أشهر، لم أصدق أنها تريد محادثتي. فكرت أنها فِي ضائقة مالية أو فِي ورطة تريدني أن أخرجها منها. دق قلبي بعنف ومشاعر الظلم الَّتِي خلفتها بغيابها عني وهجرها لِي تطفو عَلَى السطح وتغرقني بقسوة ووحشية فِي بحر هادر من الأحاسيس المرتبكة. رفعت السماعة وقلت أيوة يَا عايدة. سمعته يقول ألو ثم يبكي، وأدركت رغم خنقة الدموع أن المتحدث رجل. سألته مستغربة: أسامة؟ قال آه... وأُجهِش فِي بكاء مُرٍّ. كررت السؤال مرة ثانية ببلاهة وارتباك، لم يردّ وزادٍ نحيبه. انخلع قلبي وطفرت الدموع من عيني دفعة واحدة رغما عني. ماذا حدث؟؟ ماذا يمكن أن يحدث؟؟؟ تمنيت أن تكون خناقة جديدة يريدان إشراكي فِيهَا، وأن يخيب ظني وتكون عايدة هِيَ الَّتِي طلبت منه الاتصال بِي. قال بصوت متحشرج: عايدة ماتت، ممكن تيجي دلوقتي؟ لم يكن طلبًا، كان أمرًا أو تصريحًا بالدخول. ثم انقطع الخط. كان ضوء الشمس الساطع يغمر الغرفة. حاولت تَبَيُّن ساقي فِي الضوء لكنِّي لم أستطع

رؤيتهما، كأنهما انفصلتا عن جسدي. هويت عَلَى المقعد أمام مكتبي فيما ظل رأسي غارقًا فِي عتمة الزاوية بين جدارين.

لم أذهب إِلَى بيت عايدة مباشرة. بكيت وحدي بحرقة، بحرقة مَن فاتته أشياء وندم عليها. ثم استقرَّ ألم الرأس فِي مؤخرة الجمجمة مثل نبض الحديد الساخن. ثم نمت. تناولت حبة منوِّمة ونمت... ولم أشعر إِلاَّ وزوجي يوقظني. كانت الساعة الثامنة مساء وريِح حارَّة تتسرب من نافذة الغرفة. فتحت عينَيَّ وأخبرته. بكيت حَتَّى ابتلَّت المخدة وابتلَّت أطراف شعري معها، بكيت بنشيج مكتوم وزوجي يحاول رفع رأسي عن المخدة ومِطرقَة ألم الرأس تعيد تثبيتها فِي مكانها. بعد دورة البكاء الثانية، قمت متكئة عَلَى ذراعه وتركته يحتضنني ويربت عليَّ. تركته يرعى خيبتي وندمي عَلَى ضياع الوقت والفرصة. كانت ستة أشهر قد مضت بلاَ مكالمات، كأن الأخبار قد انقطعت من العالَم عندما انقطعت أَنَا عن زيارة عايدة. صمت عميق حلَّ عَلَى حياتي وخلَّفَ وراءه شعورًا غريبًا ساعدني عَلَى الابتعاد عنها، شعورًا بالخفَّة والتفاؤل، الخفَّة لأني لم أكن أحتمل تعقيد حكاياتها وأكاذيبها، والتفاؤل لأني تصورت أن المياه ستعود إِلَى مجاريها عندما يحين الوقت، بشروطي لاَ بشروطها. ثم مرَّ الوقت وتوقف الزمن، توقَّف زمن عايدة فجأة دون إِنذار.

عندما نمت تسلل الحلم رغم سد الحبوب المنيع، تسلل ليجعلني أراها. كنت فِي بيت يشبه بيتنا الريفي القديم. أجلس فِي غرفة بابها مفتوح لكنِّي محبوسة فِيهَا. أعرف أن شخصًا مَا جاء بِي إِلَي هُنَا وحبسني. أسمع صوت أنفاسه قادمًا من الغرفة المجاورة لكني لاَ أعرف من هُوَ، لاَ شك رجل، لاَ شك صديق أو قريب، لاَ شك أنِّي جئت بكامل إِرادتي. لكني أريد أن أخرج الآن وَلاَ أستطيع. أتسلَّل بعد برهة من باب البيت المفتوح. أراها فرصة للهرب. البيت يشكل

نصف دائرة ويحيط بِهِ سور وممرّ من الأشجار. أركض بموازاة السور وأكتشف أني أعود إِلَى نفس النقطة الَّتِي بدأت الركض منها. لاَ أمل فِي الخروج.

تأتي عايدة لزيارتي، لاَ أعرف كيف دخلت وَلاَ يهمُّني أن أعرف. سعيدة لرؤيتها. لكنها منهكة، تنام عَلَى فراشي وتقول سنتحدث غدًا. قادمة من مكان بعيد، ملابسها مترّبة قليلاً، حقيبتها عند باب الغرفة، لاَ تنصت إِليَّ وَأَنَا أخبرها عن إِحساسي بالسجن. رُبَّمَا لاَ تصدقني. تنام بعمق دون أن تبدِّل ملابسها. فِي غرفة أخرى، الوقت قبيل المغرب، صديقة أخرى تظهر فِي نفس الحلم، فِي نفس البيت، فِي غرفة كبيرة تشبه الدائرة. لم أرَها منذ سنوات، مَا الَّذِي جاء بِهَا من عالَم النسيان إِلَى عالَم الحلم. كانت تحدِّثني عن أبنائها. ترتِّب الغرفة وهي تتكلم، تطوي ملابس خرجت لتوِّها من المجفف. تقول إِني جاحدة، لاَ أدري كم أَنَا محظوظة، تشير إِلَى أن الكلّ يحبُّني، وزوجي أيضًا، وهذا يكفي. تقول إِني ناجحة، ناجحة. فهمتِ؟

ترتيب الحلم لاَ أذكره، أعتقد أنه انتهى بمحاولة خروجي من البيت ثم عودتي إِلَى نفس نقطة البداية. صحوت من النوم عَلَى وجه عايدة النائم. تعجبت لأن شكل الممرِّ الدائري الَّذِي ركضت فِيهِ كان مألوفًا. لم أكُن خائفة ولم أكُن حقًّا أريد الهرب، كنت فقط أحاول. كان حلمًا عاديًّا، لم يكُن كابوسًا. حلم ثقيل رغم ذلك، لأن عايدة بدت لِي كعادتها شديدة الأنانية، مستغرقة فِي ذاتها. جاءت تزورني بعد غياب ورفضت الْكَلاَم ثم راحت فِي سبات عميق. ضاعت فرصة الْكَلاَم مرة أخرى، ولم أكُن أَنَا من ضيَّعَها هذه المرة. كان القرار النهائي قرارها هِيَ. فِي الحلم بدت صديقتي الأخرى "غبيَّة" تمامًا كما كانت عايدة ستسمِّيها لو أنها قابلتها، لاَ تفهم تعاستي وَلاَ تقيم

وزنًا للفراغ الروحي الَّذِي أعاني منه، تنظر فقط إِلَى مؤشرات النجاح وتقيس عليها فشلها وفشل الآخرين. كان هذا واضحًا فِي ذهني فِي أَثْنَاءِ الحلم، وليس مجرَّد تفسير لما حدث فِيهِ بعد انتهائه. ثم صحوت عَلَى هزة يد زوجي وعلى حقيقة أنِ عايدة لم تعُد فِي الحَيَاة، تلك الَّتِي أصحو لأراها تنغلق مثل دائرة لاَ فكاك منها.

كان البيت شاحبًا والطريق إِليه متربًا مكتظًّا بالسيَّارات والبشر. يوليو بدأ أمس فقط، وهبط بحرِّه ورطوبته علينا. لم ندرِ إلاَّ وقد غابت عايدة عن الحَيَاة فِي منتصف العامِ بالتمام والكمال. هبطنا أَنَا وزوجي من السيَّارة وصعدنا إِلَى شقَّة الدور الثالث، تأتينا أصوات مختلطة منِ كلّ جانب، من الشقق المغلقة فِي لاَ مبالاة ومن شقَّة الدور الثالث الَّتِي وصلنا إِليها منهَكين لنجد بابها مفتوحًا عَلَى اتساعه. نساء ورجال القرية يسدُّون الطريق إِلَى الشرفة الخلفيَّة. كنت أتوقع أن أجد أسامة وعادل هُنَاك، وفعلاً كانا يديران ظهريهما إِلَى الصالة كأنهما أصبحا غريبَين عن البيت. بكيت فِي حضن عادل وجر أسامة زوجي معه إِلَى الممرِّ الواصل إِلَى غرفة النوم ورأيته من بُعْد يبكي عَلَى كتفه ويعلو نشيجه. رائحة عشب يابس وحطب محروق تسدُّ أنوفنا وظلال جسد عايدة النحيف تتجمع وتتسلل عابرة البيت إِلَى فضاء المدينة الخانق.

(١٠)

"مسكينة! لم تدر إلاَّ وهو فوقها ورأيتها تلهث ورأيتها تترك لَهُ شفتيها ورأيتها تدفعه بهدوء كأنها تُرجِئ اللذَّة ورأيتها تنسحب إِلَى المطبخ وهو متردد هل يتبعها فِي التوِّ أم ينتظر. ثم رأيتها تبكي. دموعها داعرة، لاَ أصدِّقها، لاَ أصدِّق أن تكون المرة الأولى. ملفوفة ومرٍغوبة وتظنُّ أنها الأذكى والأحلى والأشرف. تجتذب الرجال بتمنعها وتقول تربية مدارس راهبات. من أدخلها تلك المدارس؟ ومن أعطاها الحقّ فِي الترفُّع والتعالي والعنجهية؟ ليست المرة الأولى يَا حبيبة قلبي، وتعرفين كم أحبك. لكن هذا لاَ يمنع أن أكرهك أيضًا عَلَى طريِقتي. الحب يجعلني أقول إِنك كاذبة مثلي، لاَ تبوحين بكذبك وَلاَ حَتَى للمراية. أمَّا الكره، فدعيني أحدِّثْك عَنْهُ قليلاً، لمصلحتك. نعم أكرهك أيتها البلهاء. لسذاجتك ولتلك النظرة المندهشة الَّتِي تطل من عينيك كُلَّمَا صارحتك بأمر يخصُّني. تصمتين وتزومين وَلاَ تعلِّقين عليها، لاَ تثورين وَلاَ تتعاطفين وَلاَ تبدين مشاعرك أبدًا، تأخذين هيئة المربِّي أو الناصح، تتكلمين بتفتح وتأنٍّ يثيران الأعصاب.

لم أقل لَهَا ذلك. هِيَ صديقِتي الوحيدة لكنِّي أكره تصنُّعها، حكمتها، وقوفها بِلاَ شرط فِي صفي، كأنها تغفر كلّ شيء، تعرف كلّ شيء. لديها حلول جاهزة لكلّ مشكلة كبيرة أو صغيرة، طريقة للتصرُّف، كلمات لكلّ مناسبة، مال لو لزم الأمر، قوٍانين صارمة للتطبيق السريع. وفوق ذلك تسرق أصدقائي مني وتعتبرهم أصدقاءها، عادل أولاً وكريم الآن، وأسامة يعاندني ويقول إِنها طيبة

وعلى نيَّاتها. كيف تسللت إِلَى حياتي؟ ومتى أدركت أنِّي أحبُّها رغم أن كلّ شيء يفصل بيننا؟

هِيَ مسكينة، وزوجها يستحقُّ الشفقة أيضًا. خيانة واحدة فِي السنة الخامسة لزواجهما ثم ارتدع وعاد إِلَى العُش ذليلاً، وهي غفرت لَهُ. تقول من حقّ الإنسان أن يقع فِي الحب مرة ومرات، ويقول هُوَ إن الإنسان يقع فِي الخطيئة أيضًا. اعترف لَهَا حين كشفت علاقته بامرأة غيرها، أراد أن يكون صادقًا مع نفسه ومعها. قال: الفتاة الَّتِي تعرفتُ إليها فِي المؤتمر اجتذبتني بشدة لأنها لم تكن أنت. كانت متهورة، منطلقة، تلقائية، مرحة، وبلا مطالب. دوامنا عَلَى الاتصال بحُجَّة تنقيح البحث الَّذِي قدمته فِي المؤتمر، أرادت أن تنقحه وفقًا لتوجيهاتي، وبدأت أَنَا أفكر فِي نقل العلاقة إِلَى مرحلة أخرى. اشتهيتها وتذكرت أنِّي لم ألمس امرأة غيرك منذ زواجنا، أردت أن أستعيد لحظة سعادة خاطفة تذكرني باحتمالات الوقوع فِي الحب من جديد. لم تكن نزوة عابرة لكنها لم تصل إِلَى مرتبة الحب، وانتهت كما بدأت بصداقة واكتفاء من الطرفين. قال اغفري لِي وَلاَ تهدمي سعادتنا، وقال اغفري لِي لأني أحبك. وهي غفرت لَهُ ولم تغفر لنفسها القرار الَّذِي اتخذته فِي ساعة غضب لتنتقم منه. عذبتها نفسها لأنها بائسة وغبية. زيارة وحيدة زارتها لعادل فِي العيادة، زيارة حكى لِي عنها قبل أن تبوح ببعض تفاصيلها لِي فِي مَا بعد. قلت لنفسي وقتها سأكتم السرَّ، ولم أشأ أن أحرجها. ادَّعيت أنِّي أسمع الحكاية منها للمرة الأولى وغامرت بمشاركتها بعض أسراري أيضًا، لأُشعِرَها بالاطمئنان.

الحكاية وما فِيهَا أنها زارته فِي العيادة وانتظرت حَتَّى انصرف الجميع. قالت أحتاج إِلَى مشورة طبية من صديق. قالت إن زوجها يريد أن يجبرها عَلَى الحمل، يرجو أن ينجب ابنة، وهي اكتفت

بالولد وَلاَ تريد متاعب الحمل. كانت كاذبة وكان كذبها مفضوحًا، زوجها كان يرجو أن ينجب طفلة وهي كانت تريد أن تعاقبه. أطال عادل فِي السؤال والاستفسار وقال عندما بَكت: اهدئي لنتفاهم، مَا المطلوب مني بالضبط؟ أجابت: أريدك أن تستأصل الرَّحِم. لاَ أريد أولادًا بعد اليوم. تصرفت مثل أي امرأة غبية جرحت أنوثتها، تصرفت بإصرار وهستيرية. محسوبةٌ الحكاية واستخدمتها لحرمان زوجها من الأبوّة، الرَّحِم فِي مقابل الخيانة. وعندما رفض عادل إجراء العملية آملاً أن تعود إِلَى صوابها، أجْرَت العملية سرًّا فِي مستشفى قريب من بيتها واتصلت بزوجها لتنبئه بالخبر وتطلب منه أن يأتي لاصطحابها بالسيَّارة.

عندها ابن زيّ الورد، مَا حاجتها إِلَى الرَّحِم؟ انتقام محسوب مثله مثل حياتها. من طلوع النَّهَار حَتَّى آخر الليل، نفس الإيقاع: البيت، مذاكرة الولد، الترجمة، الطبيخ، زيارة حماتها، قراءة الجرائد عَلَى الكمبيوتر، الادّخار لتأمين مصاريف زواج الولد. يَا الله! عيشة غبية فعلاً! غباء من يثقون بالقِيَم الَّتِي تَرَبَّوا عليها بِلاَ مناقشة، بِلاَ تفكير، بِلاَ تجربة. طبعًا أخرجتها من هذا العالَم وأدخلتها غيره. طبعًا أفتخر بذلك. لم يعُد السقف الَّذِي تحلم بِهِ كافيًا لحمايتها، ولم يعُد البيت الَّذِي تحتمي بِهِ كافيا ليعطي حياتها طعمًا. صَحَت من النوم فوجدَتني أهزُّها وأقول هيَّا نخرج. خرجنا كثيرًا واتكأت كلّ مِنَّا عَلَى الأخرى. تحكي لِي أحلامها وأحكي لَهَا أحلامي ونستغرق فِي جلسات تفسير الأحلام ونضحك حَتَّى نستلقي عَلَى ظهورنا. لكنها لاَ تأتي أبدًا من نفسها، لاَ تفتح باب الحكاية إلاَّ لو جرجرتها، وعندما تغيب وتعود تكون قد حلَّت مشكلتها، لاَ أعرف أبداً ماذا حدث وَلاَ كيف انحلَّت العقدة. تحكي بإيجاز، وعندما تحكي بالتفصيل أنام منها. آه! لديها تلك العادة الغريبة فِي اللَّفِّ والدَّوَران

حول الموضوع، تتوه وأتوه معها وأكاد أنام عَلَى صوتها الرتيب. أما كريم، فموضوع يطول شرحه. لديَّ إحساس أنهما سيقيمان علاقة قريبًا، لكني لست متأكدة. يتكلمان فِي الأدب كثيرًا، وهو مؤشر عَلَى انجذاب هذا الكلب إليها. ثم أَنَا مَا لِي! حياته أيضًا خربة منذ زمن وَلاَ يصادق امرأة إلاَّ لأنه يشتهيها أَو لأنه ينوى استغلال حبِّها لَهُ لتنفق عليه وتسدد ديونه. سنرَى".

كان لقراءة هذه الصفحات دور فِي تقويض العلاقة بيني وبين عايدة، قبل أن تنقطع تمامًا عن الاتصال بِي. أخبرتُ زوجي أن عايدة أفشت سرَّ استئصال الرَّحِم فِي اليوميَّات وكتمت عَنْهُ التفاصيل الأخرى الخاصَّة بكريم، هِيَ أشياء لاَ تُحكَى. ثار مردِّدًا كلمات أُمِّه عن عايدة ثم ربت عَلَى ظهري وقال إن علاقتي بِهَا لن تدوم طويلاً عَلَى أي حال. لم يشاركني ألم المعدة الَّذِي كان يوقظني من أحلى نوم عَلَى الغثيان ونوبات المغص، ولم يعرف أني ظللت عدة أسابيع أخطط للرَّدِّ عَلَى اتهامات عايدة وأرتب فِي عقلي الحُجَج والبراهين الَّتِي تثبت حسن نِيَّاتي وسوء نِيَّاتها. أتخيل مواقف نفتح فِي أثنائها الحديث عمَّا جاء فِي اليوميَّات وأتخيلها تراوغ تارة وتؤكد تارة أخرى أنِّي صديقتها الوحيدة وأنِّي لم أكن أستحقُّ منها ذلك. لم يعرف أني كنت أقضي ساعة أو ساعتين قبل النوم فِي نقاش متخيَّل مع عايدة وَلاَ يسفر حديثنا الصامت عن شيء سوى ألم الرأس والأرق. لم أغضب من عادل، كنت أعرف أنه أَسَرَّ إِلَى عايدة بزيارتي العيادة لأنه تَصوَّر أنها أقرب صديقة إِلَى قلبي. غضبت من عايدة لأنها كتبت، والكتابة تبقى مثل جرح مفتوح. وغضبت منها أكثر لأنها اعتبرتني أغبى من أن أفهم تعقيد الحكاية الخاصَّة بكريم. نعم كان يجتذب انتباهي وكنت أتحايل قدر استطاعتي حَتَّى أداري

هذا الانجذاب، لكنِّي كنت أعرف أنه مثل قبر أو هاوية، وأنِّي قادرة عَلَى التوقف قبل الحافَّة بقليل لو أردت. المشكلة الحقيقية أني أريد أن أجازف بالسقوط، أريد أن أجرِّب هذا النوع من السقوط، إرادة حَيَاة تشدُّني إِلَى زوجي وإرادة فناء تشدُّني إِلَى كريم. هِيَ لم تَطِقْ أن يصرِّح كريم بانجذابه نحوي أمام عينيها، ولم تَطِقْ تمَنّعِي وانسحابي. في تلك الليلة في شاليه أسامة، انتهت محاولته سريعًا قبل أن تبدأ وانقلب الموقف الدرامي الَّذِي تمنت أن يحدث عَلَى الملأ رأسًا عَلَى عقب. كانت تقف مشجِّعة من بُعد، تتمنى أن يحكي لَهَا كريم مَا سيحدث بيننا فتتأكد من إِحكام قبضتها عليه، قبضة الصديقة الَّتِي تشارِك صديقها مغامراته وتحثُّه عَلَى إتمامها رغم أنها تغار عليه وتتمنى سرًّا أن لاَ ينصت إِلَى نصائحها. وعندما انتهى الموقف سريعًا كما بدأ، هزَّت عايدة كتفيها وعادت لتضمَّ كريم تحت جناحيها بِلاَ منافس.

خانتني عايدة بابتعادها المفاجيء عني، برفضها العنيد الافصاح عن السبب. خيانات الأصدقاء تُضحِكني وأحيانًا تُبكِيني، تترك ندبة. تُضحِكني لأنها مكشوفة وتافهة، وتُبكِيني لنفس السَّبَب. كنت أريد أن أثق بعايدة بعد أن فقدت صديقات كثيرات قبلها، لاَ أن أحذر منها. كنت أتمنَّى أن أأتمنها عَلَى سر وأن تصونه بحق. بعض أسرارها وضعتُه فِي جعبة وألقيتُ بهَا فِي البحر، أتذكَّرها وأتذكَّر أنها بيننا، خاتم ثقة وعربون مَوَدَّة لاَ تفنى. وبعضها الآخر يطفو عَلَى السطح فيبدو أن السرَّ لم يعُد سرًّا لأن آخرين شاركونا فِيهِ، لأن آخرين غيرنا انتهكوه. يطفو السر وحده، أو بقرار من هذا الصديق أو من هذه الصديقة، لاَ فرق. فالأصدقاء بينهم مَا بينهم من حب ومَوَدَّة ولكنْ بينهم أيضًا غيرة وتوجُّس ورغبة فِي الانتقاد ورغبة فِي إسداء النصح. ولأن الناس معادن، بعضهم صلب

وبعضهم طريّ، بعضهم يحفظ السرَّ وبعضهم يُفشيه، بوازع من الرَّغبة فِي الانتقام أو بدافع من الرعونة والاستخفاف، تظلّ الأسرار فِي النهاية محلّ اختبار دائم لصلابة المعدن، وعمق الجذور.

عايدة كان لديها حماس خاصٌ لمعرفة الأسرار، تحتفظ بِهَا كأنها نقود بنكنوت، تتبادلها وتقايض بِهَا، تتناقلها وتتبارى فِي تفسيرها. معظم تلك الأسرار تافه ومبتذَل، وأضرار إفشائه محدودة فِي النهاية. "كلام ستّات" لاَ يصدِّقه الكلّ، بما فِي ذلك الستّات أنفسهن. أسرار الحَيَاة الأسرية مثلاً نادرًا مَا تكون ذات قيمة حقيقية، قيمة تستحق الإخفاء أو الإفشاء، لفرط مَا تتكرر وتتشابه. حكايات صغيرة يومية، احتكاكات، تعليقات، غمزات ولمزات. كانت ترى أن الأسرة هِيَ فِي مضمونها ضدّ السرّ ومع الإعلان، ضدّ الفرد ومع الجماعة. أما هِيَ فكانت نبعًا لاَ ينضب من منابع الأسرار، نادرًا مَا تحافظ عليها، والأرجح أنها تُخرِجُها عند الحاجة وتستخدمها لقضاء مصلحة، أو لمجرَّد الفضفضة. عن نفسي، أحب الاحتفاظ بأسراري فِي جعبة! أفرح بأن لدي أسرارًا، فرحة تلازمني منذ المراهقة، رغم أن تلك الفترة لم تكن فِي الحقيقة سوى فترة إفشاء دائم. فكثيرًا مَا تتخيل المراهقات أن سرَّهن فِي بئر، لكنهن يتعمدن الكشف عَنْهُ لعدد كافٍ من الصديقات والأصدقاء بما لاَ يترك مجالاً للشك فِي أن السرَّ لن يظلَّ سرًّا عَلَى الإطلاق. يفعلن ذلك بعفوية، عفوية الثرثرة وعدم الاستقرار عَلَى حال. كانت عايدة من هذا الفصيل، مرتابة ومتطرفة تتنازعها مثالية شديدة ومشاعر ضعف أمام كلّ مَا هُوَ سرِّيٌّ وخفيٌّ تجعلها غير مستقرَّة عَلَى حال، وكانت فِي الأحوال كافة تسعى لجذب الانتباه وتتغذى عَلَى نظرة الآخرين إليها.

نقلت الفقرات الَّتِي كتبتها عايدة عنِّي فِي فايل اليوميَّات عَلَى الكمبيوتر وأضفت إليها صفحة من تأليفي. أضفتها ردًّا عَلَى عايدة،

دفاعًا عن نفسي. كانت تلك هِيَ المرةِ الأولى الَّتِي أتدخَّل فِيهَا بصوتي لأغيِّر من مجرى الأحداث وأعلِّق عليها. كأني كنت أتمنى لو أن عايدة ترى الأمور كما أراها أنَا. صحيح أن حياتي قبل صداقتنا وبعدها لم تعُد كما كانت، لكن هذا التحوُّل لم يكُن يعطيها الحقَّ فِي إدانتي. والألم الحقيقي الَّذِي سيلازمني لسنوات قادمة هُوَ أنها لم تعِش لتقرأ مَا كتبتُ. فات الوقت. الفقرة أردت أن يقرأها زوجي يومًا مَا وأن يعرف مدى حُبِّي لَهُ. أردت أن أضمِّنها مَا لاَ أقوله لَهُ أبدًا لأني أخجل من البوح، وما لم أقُله لكريم قط لأني تصورت أني أحببته في البداية مثلما تحب أمٌّ ابنها ثم خجلت من الاعتراف بذلك عندما اكتشفت انجذابي الجسدي له.

"بعد عودتي من الحفل، قلت لَهُ: ابقَ معي قليلاً حَتَّى أنام. لم أقل شيئًا عمَّا حدث بيني وبين كريم، بيني وبين عايدة، هِيَ أشياء لاَ تُحكَى. لكنِّي شعرت بمحبَّة هائلة لم أشعر بِهَا منذ زمن. أردت أن أقول لَهُ مَا لم تقُله امرأة لرجل من قبل، أردته أن يعرف أني رغم خيانته ورغم تهوُّري أموت بموته وأحيا بأنفاسه وأنظر فِي وجهه فأرى روحي يعلو ويشتدُّ. لكنِّي لم أقُلْ شيئًا من ذلك، فقط طلبت منه أن يبقى معي حَتَّى أنام. أخجل من الاعتراف بأني أُحِبُّه وأتخيل ردَّ فعل الشلَّة عَلَى قصَّة حُبٍّ بين زوج وزوجته! قد يتقبلها أسامة وقد يتفهَّمها عادل، لكن عايدة ستسخر منها وكريم سيرغب فِي تخريبها لمجرَّد أنه يهوى التخريب. هِيَ أشياء لاَ تُحكَى، ليس لهؤلاء.

قبل النوم تذكرت أول قبلة خطفتها بجرأة من خدِّه الأملس. تذكرت أنه وضع يده عَلَى موضع القبلة وانفطر قلبه من السعادة. قلب رجل رقيق، قبلة امرأة مطيورة. فِي الحلم أراه دائمًا بين حدَّين، حدِّ الهوس بِهِ وحدِّ السأم منه. كيف أفسِّر ذلك؟ وكيف يكون الحب

رغم ذلك؟ أقول: لم يُعرف للحب داء أمرٌ وَلاَ أشقى من السأم، لكنه يبقى وينمو ويتجدد كأنه شعور لم يحدث من قبلٍ، بدهشة مَا بعد السفر، بفرحة اللقاء بعد غياب. أقول: اذهب عنيِ الآن، ولَمَّا يذهب أستدعيه وأقبّل مَا بين عينيه وأرجوه أن يبقى قليلاً حَتَّى أنام.

بيننا سِرٌ. سِرٌ لم ينجح أحد بعدُ فِي فضِّه. بيننا موت بكينا بسببه عَلَى حِدَة وبكينا بسببه مَعًا. بيننا حَيَاة وصراعٍ وشكوك وصبر أيوب وابن وحيد وغيرة وسفر. بيننا نزوع دائم إِلَى الفرح، بدأب نتحايل لاستبقائه ولو ساعة، ساعتين. أنسى أحيانًا القسوةَ والشجار والعناد، وأتذكر ساعة النشوة ونظرة امتنان لاَ أُخطِئُها فِي عينيه. أعرف خفقة روحه حين أظهر أمامه عَلَى غير موعد وأرى وهج عينيه حين أبتسم لَهُ. لاَ أراه إِلاَّ نادرًا فِي الأحلام وأحكي لَهُ حلمي برجل غيره، لأنه صديقي الوحيدٍ، فلمن غيره أحكي. لاَ ألعب لعبة غواية، أعرف فقط أني لَهُ وأنه مني وإِليَّ. رجل غيره فِي الأحلام، وَلاَ أحد غيره فِي العالَم. نعرف، وتمدُّ المحبة بيننا خيطًا يراه الجميع وَلاَ يدرك أحد مقدار صلابته. يعرف من يعرف حين يحاول قطعه ويفشل. يبكي ونضحك. أقول: انظر مَن جاء لزيارتنا! ينظر ويتأهب ويحيطني بسور منيع من الرقة والفهم. أحيانًا أقول: سئمتَ حُبَّك. ثم أجذبه إِليَّ وأقبل مَا بين عينيه وأريح رأسي عَلَى صدره. ابقَ معي حَتَى أنام. ومَن غيره يبقى معي؟ مَن غيره أعطيه الأمان؟ من غيره يقيم جدارًا من خلفي أستند إِليه وأستريح؟ أعرف أنه سيبقى لو طلبت، سيبقى حَتَّى النهاية، رغم الأحلام، رغم السأم. رغم شوقه الساكنِ لامرأة تخضع، لامرأة تهدأ فِي صحبتها الحَيَاة كالنهر. أعرف أني أثور وأهدأ وأنام نومًا متقطعًا وأصحو عَلَى الأرق، أعرف أيضًا أنه لِي وَأَنَا منه وإليه، وأن سرًا بيننا لم يفلح أحد فِي فضِّه يدرأ الشرَّ، يُخرِس صوت الشيطان. اللعنة عَلَى هذه

السعادة! أكبر مني ولا طاقة لي بها. لكني أكفر بها وأندم ثم أعود وأنام في ظله وأحلم. أحلم طوال الوقت".

(١١)

مر نحو شهر قبل أن يتمكن أسامة من استعادة الشَّقَّة. كان أقارب عايدة وأهل قريتها قد احتلُّوا الْمَكَان بعد وفاتها ظنًّا منهم أنه تنازل عنها لزوجته السابقة أو أنهم يستطيعون الاستيلاء عليها بوضع اليد. لجأ أسامة إِلَى أحد المحامين وجهَّز الأَوْرَاق اللازمة واصطحب البوَّاب وموظفاً من الحيِّ وهبط عَلَى الشَّقَّة ذات صباح باكر فلم يُمهِل سُكَّانها سوى ساعتين لإخلائها. كان هاجس أسامة الأول هُوَ الحفاظ عَلَى رسوم عايدة وأَوْرَاقها وكُتُبِها، مَا عدا ذلك فقد سمح لأقاربها بنقل كل محتويات الشَّقَّة. لم يكن أحد منهم يهتمُّ بالرسوم والأَوْرَاق عَلَى أيِّ حال، كان اهتمامهم مُنْصَبًّا عَلَى مَا تَصَوَّرُوا أنه من ريحة المرحومة أو أن لَهُ قيمة، الأثاث والملابس. نُقِلَ هذا كله فِي أقلَّ من ساعتين من شَقَّة الطابق الثالث فِي المدينة إِلَى بيوت أهالي القرية فِي الجنوب.

صحوتُ من كابوسٍ متعكرةَ المِزَاج لأجد زوجي قد غادر البيت واصطحب الولد إِلَى بيت جدته. ترك ورقة عَلَى المكتب أمام الكمبيوتر كتب فِيهَا أنهما سيقضيان النَّهَار مع أُمِّه ثم يذهبان للغداء فِي النادي بصحبتها هِيَ والمُمَرِّضَة. رنَّ الهاتف مرتين، لم أردّ فِي المرة الأولى، وعندما تكرَّر الرنين قمت منزعجة من الفراش. كان المتحدث أسامة. يسألني إن كان باستطاعتي مساعدته فِي ترتيب أَوْرَاق عايدة وكُتُبِها ووضعها فِي صناديق استعدادًا لتخزينها. رحَّبت عَلَى الفور بالفكرة، وبعد أقلَّ من ساعة كنت أتجول معه كالمأخوذة وسْط أكوام الْكُتُب المرصوصة عَلَى الأرض واللَّوْحَات الْمُسنَدة إِلَى

الجدران وتلال الكُرَّاسات والاسكتشات والملفات والأَوْرَاق المتناثرة فِي أرجاء الغرفة والصالة. جاء الْبَوَّاب بصناديق متباينة الحجم من الكرتون وتركها عند المدخل وراح يقلب بصره فِي فَوْضَى الأَوْرَاق كأنه يتحسر عَلَى الْمَكَان وصاحبته. ثم عاد بعد قليل ليسلِّم أسامةَ عددًا من الخطابات والفواتير الَّتِي تراكمت عَلَى مدار أسابيعَ بعدَ وفاةِ عايدة. تَذَكَّر وجه عايدة المشرق وهي تتسلم منه حصيلة البريد كلَّ يوم: أول مَا تنده تلاقيني عندها، تقول "هاه، لَمِّيت المحصول؟" وتضحك. ظلَّ واقفًا هُنَاك عدة دقائق يتأمل الصناديق ويتحسر عَلَى موت عايدة المبكر ثم انصرف وأغلق وراءه الباب. استغرق أسامة فِي فتح الأظرف وفرزها قبل إلقائها فِي سلَّة الْمُهمَلات، ثم انهمكنا من جديد فِي تصنيف الْكتب ووضعها فِي الصناديق وترقيم كلّ صندوق وكتابة محتوياته بخطّ سميك عَلَى جانبه وجمعنا رسوم الأكواريل والفحم ووضعناها فِي مظاريف سميكة لَهَا عدة جيوب تشبه جيوب الأكورديون صُنعَت خِصِّيصًا لحفظ الرسم عَلَى الورق.

كان النَّهَار يقترب بطيئًا من نهايته عندما عثرت عَلَى كُرَّاس اليوميَّات الرابع. لم يكن يشبه فِي شيء الكُرَّاساتِ الثَّلاَث السابقة، كان غلافه من الكرتون الأسودِ الْمُقَوَّى أَقْرَبَ إِلى كُرَّاسات الحساب الَّتِي يستخدمها أصحاب محال البقالة والعطارة لتدوين مصروفاتهم. بدأَته عايدة بديباجة دينيَّة فاجأَتني وأثارت دهشتي نقلَتها عن كتاب قديم من كُتُب التُّرَاثِ وحرَصَت عَلَى كتابة التاريخ فِي آخرها. بحساب سريع، أدركت أن تاريخ بداية الكُرَّاس يسبق بأسبوعين أو ثلاثة تاريخ انقطاع العلاقة بيني وبين عايدة، قبل ستة أشهر من وفاتها. بعد بحث قصير عَلَى الإنترنت وبسؤال أحد باعة الْكُتُب القديمة عثرتُ عَلَى الكتاب الَّذِي نقلَت عَنْهُ عايدة بتصرُّف افتتاحية الكُرَّاس الجديد. كان الكتاب يتحدث عن الصداقة والصديق بلغة

تعجبت أن تكون لعايدة أدني علاقة بِهَا، لكنها اختارت فقرة مفهومة نسبيًّا ونقلَتها بِلاَ تحريف كبير فِي الكُرَّاس: "اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة الَّتِي بِهَا تصلح القلوب، وتُنقّى الجيوب، حَتَّى نتعايش فِي هذه الدار مصطلحين عَلَى الخير، آخذين بأطراف المروءة، متزودين للعافية الَّتِي لاَ بُدَّ من الشخوص إِليها، وَلاَ محيد عن الاطِّلاع عليها، إِنك تؤتي من تشاء مَا تشاء". بدت الديباجة المنقولة استدرارًا لعطف أو اعتذارًا عن ذنب ورغبةً فِي إِصلاحِ مَا فسد. الغريب أنها لم تكتب كثيرًا فِي هذا الكرَّاس، كان يمتلئ حَتَّى الثُّلث فقط وكثير من صفحاته تُرك أبيضَ عن عمد كأن عايدة كانت تنوي أن تملأ الفراغات فِي وقت لاحق. انتبه أسامة لاستغراقي فِي القراءة واقترب مني ليقرأ من فوق كتفي مَا كتبَته عايدة. وكأني بِهِ كان يعرف مَا ورد فِي هذا الكُرَّاس تحديدًا، لأنه ابتعد بِلاَ تعليقٍ وأكمل العمل فِي أكوام الكُتُب. فِي مَا بعد عندما لمحني أضع الكرَّاس فِي حقيبتي قال إِن عايدة كانت أطيب مجنونة عرفها فِي حياته. ثم استدار واختفى فِي ركن الشرفة، وسمعته يكتم نشيجه مثل طفل نسيَت أمه أن تقبِّله قبل النوم.

"تمنيت أن تدوم السعادة لكنِّي أدركت أن سعادتي رهن إِشارته وخِفْت. تمنَّيت أن أظلَّ مخلصة لحبه هكذا لسنوات أخرى قادمة، أن تتكسر العوائق وتزول الحدود بيننا ويظل خيط من المحبة يربطني بِهِ رغم جحودي ورغم عناده. أحاول أن أنسى فتجرجرني الذاكرة للتيه مرة أخرى وتمر الساعات وَلاَ أعرف كيف مرت. أنتقل من غرفة لغرفة فتتنقل معي الحيطان، تعلو وتجثم. حبوب الزاناكس مع فنجان القهوة الصباحية قبل أن يشرخ الصدرَ بكاءٌ مكتوم. لاَ أذكر كيف هانَ عَلَيَّ وَلاَ مَتَى؟ لاَ أذكر كيف انتهت الحدوتة ولِمَاذَا. أذكر

فقط ولعه بِي وغضبه منِّي واستياءه من قدرتي عَلَى التخلِّي ومن استمرار الحَيَاة بِهِ ومن دُونِه، مَعَه أو مع غيره. أحاول أن أنسى، وعندما تزول عني حُمَّى النسيان أبكي وأندم. أحيانًا أتذكَّر كلّ شيء دفعة واحدة وأحيانًا تداهمني تفاصيل متفرقة وبِلا رابط. وأحيانًا ثالثة أنام وأتمنَّى استعادة اللحظة فِي الحُلم لكني أحلم بضياعها وأندم. حين أصحو لاَ يبقى من الحلم سوى استعذاب الأسى. متى قمت ومتى نمت، لاَ أذكر. أذكر فقط أنِّي كنت هُنَا فِي الحقيقة ثم صرت هُنَاك فِي الحلم، عَلَى بعد آلاف الأميال الضوئية من مجال إبصاره، من ملمس يديه، من شفتيه، من سمعه. وَلاَ حَتَّى الصوت. يبخل عَلَيَّ بصوته. ألعنه وأشرب كأسًا فِي صِحَّة غيابه. خنجر مسموم يرتدُّ إِلَيَّ، يُمِيتُنِي برقة.

أرجو فقط أن لاَ يذهب الحب من قلبي، أن يظلَّ برفقتي بعض الذكريات، شهرًا آخر يأتي بعده شهر لتصبح سنة تمتدُّ سنوات من الونس ومن أحلام اليقظة. لم أحب أحدًا هكذا. ولن تحبِّي، قالها لِي ذات مرة وهو يقصد أن أنانيتي القديمة ستتغلب. لن أحب سوى نفسي مهما أحببته هُوَ. قالها وهو يتحسب خيانة لاَ بُدَّ منها، ويضحِّي بما لاَ يعرف من أجل مَا يعرف. كان موجودًا لكنه لم يعُد كذلك. فجأة وبلا مقدمات، أفلت الخاتم من إصبعي. لم أفهم ثم عدت وتذكرت، ثم حاولت أن أنسى، ثم فشلت وتذكرت، ثم اختلط عَلَيَّ الأمر فطلبت منه أن يُرِيَنِي وجهه للمرة الأخيرة، أن يُسمِعَنِي صوته للمرة الأخيرة، لعلَّ النزيف يتوقف، لم يفعل ولم يتوقف. لن يعرف أبدًا أن النزيف حبل ممتدّ بيننا، وأنه قادر عَلَى قطعه لكنه لاَ يفعل. ولِمَاذَا يفعل وهو أدرَى بالذي يقتل. طرف يصيبه وطرف يصيبني والقتل واحد. شرٌّ يُمِيت وشر يُحيِي وشرٌّ لاَ بُدَّ منه حتى تستمرّ

الذكرى ويستمرّ الأرق وتبقى العلاقة الناقصة مبتورة، مقتطَعة من حياتنا مَعًا، متوهجة بوهج الاحتمال. رُبَّمَا لو... رُبَّمَا.

أشعر أنِّي اثنتان. أكتب عن ذاتي أحيانًا بصيغة الجمع، لاَ لأني مُصَابة بفصام لكن لأني أحب أن أتأمل نفسي من الداخل، مثلما كنت أطيل النظر إِلى نفسي فِي المرآة عندما كنت صبيَّة. أَنَا فعلاً اثنتان، والثانية الَّتِي ولدتها من رحمي تشبهني تمامًا كأنها أختي، نفس لون الشعر، نفس حدبة الأنف نفس تدويرة الوجه. لكنها وُلدت كاذبة وسارقة وَأَنَا وُلدتُ لأهداف أخرى، الفن أحدها وإن لم يكُن أهمَّها. وُلدت أَنَا من بطن أمي ووُلِدَت هِيَ من خيالي مثل كائن غير مكتمل النموّ التصق بِي وظل يصاحبني حَتَّى فِي أكثر الأماكن خصوصيةٍ، يراقبني ويحتال كي أظلَّ أراقبه. أُصِرُّ عَلَى مراقبته كُلَّمَا غفَا عني ويُصِرُّ عَلَيٍ مراقبتي كُلَّمَا غفوتُ عَنْهُ. صارت الأنا الثانية بمرور الوقت تحتل جزءًا هامًّا من حياتي وعندما تَعَلَّمَتِ الْكَلاَم كان أول شيء قالته لِي: أرجو أن نظل صديقتين إِلَى الأبد.

كُنَّا صغيرتين فِي قريتنا حين تعاهدنا عهد الأُخُوَّة وصدَّقنا عليه بعهد الصداقة ومنذ ذلك الحين لم نترك غريبًا أو قريبًا يتدخل بيننا أو يفضُّ شملنا. بعد أن كبرَتْ وصارَتْ مثل فرس جامح لاَ قدرة لِي عَلَى السيطرة عليه ناهيك بتوجيهه ورعايته، بدأت تتحدث عن رغبتها فِي الخروج إِلَى العالَم مِن دُونِي وعن خوفها مِن صدمة مواجهة الحَيَاة وحدها. أقنعتُها أن العالَم لا يعرفها وهي لاَ تعرِفه إِلاَّ من خلالي، قلت إِن الكلَّ يُنكِرُ وجودها والكلّ يريد النَّيل مني عن طريقها. ذكَّرتُها أنِّي داومت عَلَى انكار وجودها لمصلحتنا نحن الاثنتين، وهي تثور وتغضب وتتهمنِي بالغباء، تقول: حَتَّى لو لم يرَنا الناس مَعًا فهم يعرفون أنِّي هُنَا، وأنتِ أعلم الناس بحياتي وأحوالي. كانت شيطانتي الصغيرة، أدلِّلها وأحايلها وألهو معها

وأخفيها عن الأعين وأخفي اسمها عن أقرب الناس إِلَيَّ، أراها حولي وتراني حولها فِي أحلك اللحظات وفي أبهجها، تختفي وتعود للظهور كأنها لم تغادر البيت، تقول "رجعت" فأستقبلها بفرحة، وتقول "أَنَا داخلة أنام" وتغيب فِي النوم شهورًا. تنام كثيرًا منذ كُنَّا طفلتين، منذ حادثة الثعبان الَّذِي هبط علينا من تكعيبة العنب. نبَّهْت خالتي يومها أنه قرص أختي فِي باطن قدمها الحافية فنهرتني خالتي وقالت "أختك مين؟ عايزة الناس تقول عايدة اتجننت؟"، ورأيت حسام يبتعد عَلَى الجسر ورأيتها تتبعه وهي تعرج قليلاً وتلتفت إِلَى الوراء تطمئنني بنظرة وابتسامة، وأبي ينصت إِلَى خالتي وهي تطلب منه أن يسلخ جلد الثعبان ويضعه فِي حجاب تحت وسادتي ليحميني من الهلاوس ويدرأ عني وسواس الحقول. لم تكن وسواسًا، كانت ونسًا خلقته لدفع الوحدة وصاحَبته بشروطي وجعلته رفيقي فِي الاحتمال.

كان أسامة شاهدا عَلَى حديثنا لكنه لم يشأ أن يتدخل لمصلحة واحدة منا عَلَى حساب الأخرى. قال إِنها تستحق أن أنصت إِلَيهَا وأن أترك لَهَا حرية التصرف مَا دامت لم تَسْعَ قَطٍّ لإيذائي، وقال "يجب أن تتركيها ترحل بعيدًا عنك عند اللزوم"، لكنِي كنت أعرف قدرتها الفذَّة عَلَى الشرِّ والتواطؤ مع الوسواس الخناس فحافظت عليها تحت المراقبة. ثم قال حسام "يجب أن تتحدثي مع الطَّبِيب لعله يستطيع مساعدتك". وعندما أثارني كلامه عن إِمكانية تدخُّل الطَّبِيب اشترط عَلَيَّ لكي تستمر علاقتنا أن أتحدث معه عن حادثة سرقة الماستركارد. بعد إِلحاح، ذهبت معه إِلَى طبيب من أصحابه المقرَّبين وحكيت لَهُ قصصًا ملفقة عن نفسي دون إِشارة إِلَى توأم روحي ودون تفسير لما ادَّعَى حسام أنه السَّبَب فِي تدهور علاقتي بهِ، ودون تبرير لما اعتبرتُه نوعًا من الغباء من جانب حسام حيث إِنه هو من ادَّعَى أن المال لاَ قيمة لَهُ مَا دمنا نحب، وهو من رفض

فِي النهاية الإنصات إِلَى صوت العقل حين عرضت عليه بيع الأثاث والأَسْوِرَة وإِعادةِ المال إِلَى أصحابه ويا دار مَا دخلك شرّ. كانت سببًا فِي تخليه عني وفي فتور علاقتنا التدريجي ولكنها كانت الأبقى والأقرب إِلَى قلبي وكان عَلَيَّ أن أختارها هِيَ وأن أتنازل عَنْهُ من أجلها.

حاولتُ أن أقنعها بكلّ الوسائل الممكنة لكي تعدل عن ترك البيت لكنها لم تكُن تنصت كأنها أدركت بالحدس أنِّي أريد حبسها معي إِلَى الأبد، خصوصًا بعد أن ساءت علاقتي بحسام ولم يعُد لِي غيرها أتكئ عليه. ظللنا حبيستين هكذا زمنًا، نتعارك ونتشاحن وهي تُصِرُّ وَأَنَا أعدها أن الشِّدَّة لاَ بُدَّ ستزول، حتى أصطحبتها ذات مساء فِي جولة عَلَى شاطئ النهر لعلَّ هواءه وطراوته يثنيانها ويليِّنان عقلها. اشترينا آيس كريم وجلسنا ننتظر الباص وراء حاجز من الزجاج يعتبره الناس محطة وأعتبره أَنَا مأوًى لطيفًا أحتمي بِهِ من أعين المتطفلين. تأخر الباص كعادته وسرى الليل بهوائه المنعش وانتهينا من الآيس كريم ولم يأتِ باص وَلاَ تاكسي من هذه الناحية. قلنا نتمشى ونأخذ أقرب طريق توصلنا إِلَى النهر. عبرنا المدينة صامتتين، كلّ مِنَّا مستغرِقَة فِي أفكارها، طعم السُّكَّر تَحَوَّل إِلَى مرارة فِي الحلق وجفَّ اللُّعاب ولزم شرب الماء لكنَّ المحال مغلقة والشوارع ساكنة والطريق إِلَى النهر طالت كأنها الأبد. مَا إِن بلغنا الشاطئ حَتَّى سمعتها تتنفس كأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلها ورأيتها تركض مثل غزال انفلت قيده لتقفز بحركة رشيقة وتعتلي سور الكورْنيش الخفيض. انخلع قلبي خوفًا عليها لكنها ابتسمت ودَعَتْنِي لأن أفعل مثلها، ففعلت. بعد قليل قلت بنبرة مهذَّبة حمَّلتُها كلّ حبِي لَهَا وثقتي بِهَا إِن الخروج إِلَى العالَم شبه مستحيل مَا لم نتفق عَلَى شروط واضحة لِمَا ستفعله وحدها فِي الحَيَاة، طمأنتها أنِّي

عَلَى استعداد لمساعدتها فِي العثور عَلَى الْمَكَان المناسب للاستقرار بعيدًا عن البيت وفي التعرُّف إِلَى أصحاب كنت أمنعها من الظهور فِي حضورهم، بشرط أن تخبرني لِمَاذَا تريد الابتعاد عني الآن وماذا تنوي أن تعمل لو تركتُها تعيش وحدَها.

كنت فِي قرارة نفسي أخاف أن تتركني لوحدتي، أن تهجرني فَلاَ أجد من يفهم مثلَها مقدارَ احتياجي إِلَى رفيقٍ يشجِّعني عَلَى احتمال الحَيَاة. كانت تصحبني فِي كلّ مكان، أَيْنَمَا ولَّيت وجهي كنت أراها، تتبعني أو أتبعها لاَ يهمُّ، تأتنس كلتانا بالأخرى وتتكئ عليها وتغفر لها كلّ الأخطاء. هِيَ سريعة الغضب سريعة الرضا، كثيرًا مَا تنفر من الناس رغم محبتها لهم ولكنها تحب نفسها أكثر من أي كائن عَلَى وجه الأرض، وَأَنَا مثلها تمامًا مع فارق أني محبوبة بين الأصحاب وَلاَ أطيق العزلة أكثر من يومين أعود بعدهما إِلَى الحديث عَلَى الهاتف والسهر مع الشلَّة والخروج فِي جولات للشراء أو التسكُّع فِي أنحاء المدينة. لم أكن أشعر بالوحدة لأنها كانت دائمًا معي، تغنيني عن الكلّ إن لزم الأمر وتسرِّي عني وتلهيني لو غاب الناس وهاجمتني المخاوف. لو دخلت بَارًا أو مقهًى ولم أجد أحدًا من المعارف القريبين أو البعيدين ألتفت إليها وأُسرُّ لَهَا بأي شيء حَتَّى لو كان تافهًا فتضحك ويمضي الوقت هيِّنًا فَلاَ أشعر إِلاَّ وقد مرت ساعة فِي حديث وأخذ وردٍّ. وإذا عاندني النوم وخرجت فِي وقت متأخر من الليل لأطرد الأرق سارعَت بمصاحبتي لتخفف عني رهبة الليل وغموضه الموحش. تهمس بالأغاني الَّتِي كُنَّا نحفظها ونحن صغيرتانِ بصوت طفوليٍّ لاَ يخلو من نزق فتلهيني وتضْحِكني وتسليني حَتَّى نعود إِلَى البيت. كنت عندئذ أضعها فِي الفراش كأنها ابنتي الَّتِي لم ألدها وأبقى ساعة أخرى فِي ظلام الشرفة الخلفية، أدخن وأشرب كأسًا فِي صحتها.

هل ذكَّرتُها بكلّ هذا؟ وهل استمعت إليَّ ونحن نسير جنبًا إلَى جنب ونخترق شوارعِ المدينة بحثًا عن أقصر طريق توصلنا إلَى النهر؟ لاَ أذكر تفصيلاً مَا قيل وما حدث فِي ذلك المساء. أذكر فقط صورتها وهي واقفة هُنَاك عَلَى سور الكُورْنِيش الحجريّ وأَنَا إلَى جوارها صغيرة متضائلة نحيلة، أتكلم كثيرًا وأصمت قليلاً، وهي من وقت إلَى آخر تفتح ذراعيها للريح وتحتضن الهواء كأنها مَلِكة عَلَى عرش سماويٍّ تنصت إلَى طنين صوتي كأنِّي بعوضة أو نقَّارُ خشبٍ وتبدو كمن اتخذ قرارًا لاَ سبيل إلَى الرجوع عَنْهُ. لم ننتبه إلاَّ بعد زمن إلَى كوننا قريبتين من بيت حسامٍ. كنَّا واقفتين عَلَى ضفة النهر المقابلة، غير بعيدتين عن العمارة حَتَّى إنه لو أَطَلَّ من شرفة الطابق الثاني عشر لرآنا. كنَّا سنبدو لَهُ من الرُّوف مثل عصفورين صغيرين ضَلاَّ طريقهما إلَى العُش. وكأنها كانت تقرأ أفكاري، وجدتها تصيح بحماسة وتشير صوب الجهة المقابلة للنهر وتسألني: يلاَّ بينا نروح لَهُ؟ وأجيبها بتردُّد أن الوقت تَأَخَّر وأذكرها أننا لم نعُد نحبه وهو لم يعُد يُحبُّنا، لكني أتبعها وأكمل حديث العقل الَّذِي بدأته قبل ساعتين بعبارات أخرى من نوعية أنها يجب أن تجد العمل المناسب وأن تتزوج وتستقرّ وتنجب بنتًا جميلة وأن تكفّ عن الكذب والسرقة حَتَّى لاَ ينكشف أمرها وتكون الفضيحة، وأقول لَهَا إني سأساعدها وأحميها بشرط أن تنصت لِي وتبقى معي، وهي تجدُّ فِي الخَطْو نحو الجسر المعدني الواصل بين الضفتين وتبتسم لِي من آن إلَى آخر وأَنَا ألهث وراءها وصوتي يتبدد مع الريح. عندما بلغنا باب العمارة كانت السماء قد انشقَّت عن أول شعاع من أشعة اليوم الجديد وكان حلقي جافًا كبئر مهجورة.

شربت زجاجة ماء كاملةً تحت عينَي حسام المنتفختين بالنعاس. وانسكب كلّ مَا شربته بعد ثوانٍ قليلة من عيني. نهر من

الدموع انهمر بهستيريا وَأنَا أعتذر لَهُ وأستسمحه وأسبُّه وألعن غباءه وعناده وأهدِّده بأني سأقتل نفسي لو أنه تَخَلَّى عني وأذكره بكل مَن أحَبُّوني ولم يَلْقَوْا مني سوى الاستهتار ثم أعود لأعتذر إليه وأقول إنه غبيٌّ لأنه لاَ يصدِّقني وأستحلفه أن يصدِّقني، وهو ينظر إِلَيَّ بعينين من زجاج ويُطرِق فِي الأرض متأملاً قدميه الحافيتين كأني لم أعُد موجودة، كأني لم أعُد حبيبته. كانت تحاول أن تجرَّني خارج الشقَّة وكنت أُفلِتُ من قبضتها وأسجد أمامه وأستعطفه أن يسامحني ويسامحها، أعده أنها لن تكرر فعلتها ثانية وأنها ستبحث عن عمل وستساعدني فِي الرسم وسترعى ابني فِي غيابي، أعده أني سأذهب إِلَى الطَّبيب بانتظام وأني لن أغادر غرفتنا البيضاء، وهو ينظر إِلَى وجهي كأنه لاَ يعرِفني. ثم فجأة جفَّت الدموع، جفَّت مثل نافورة انقطع ماؤها، وحلَّ الصمت. سمعتها تفتح الباب بعنف وتغلقه بعنف وراءها. سمعته يناديها "عايدة، عايدة"، وهي لاَ تُجيبُه. ثم أفقت بعد قليل وكنَّا فِي سيارته، وكنَّا عَلَى طريق متعرجة، وكان يساعدني عَلَى دخول الفراش، وكانت تحنو عَلَى رأسي كعادتها وهي تهمهم بالأدعية، ثم رأيتهما يخرجان من الغرفة إِلَى الممرِّ وسمعتهما يتحدثان بصوت مكتوم. أصغيت قدر استطاعتي وبدا لِي أنهما يتحدثان عن أفضل طريقة لعمل شوربة العدس. كانا ينويان تحضيرها وتقديمها ساخنة لِي فور استيقاظي من النوم. يقولان إن جريدة اليوم ضمَّت صفحة كاملة لربَّات البيوت عن طرق عملها مُهداةً إِلَيَّ شخصيًّا من رئيس التحرير. يقولان ذلك ويتمتمان "طيب يَلاَّ بينا"، وباب الشرفة ينفتح فيخرجان منها إلى الطريق والهواء يسري فِي البيت وهمهمات الصبح تصل إِلَيَّ من بعيد وَأَنَا أفكر قبل أن أستسلم للنوم أنها مجرَّد هلاوس وأن مَا سمعته لاَ علاقة لَهُ بأختي المتخيَّلة وحسام لكن بماهي وكريم صديقَيَّ اللَّدُودَيْن، هما الاثنان لاَ يفهمان شيئًا ولذلك يستحقان اللعنة، كلَّ اللعنة".

(١٢)

طائرة معلَّقة فِي الهواء صوت موتوراتها مُدَوٍّ، لاَ تتقدم وَلاَ تتأخر، تقف فِي فضاء أزرق فِي وضع الثبات. تجلس عايدة مطمئنَّة، تنصت إِلَى صوت المضيفة وهي تقول إِن جناح الطَّائِرَة بِهِ عطل وإِن طاقمها سيتركها فِي الفضاء ويقفز بالباراشوت إِلَى الأرض لطلب النجدة. عايدة مطمئنَّة لأَن النجدة لاَ بُدَّ ستأتي وهي مصمِّمة عَلَى التمسُّك بمكانها عَلَى الطَّائِرَة مهما حدث. هِيَ فِي طريقها لتلحق بحسام فِي فندق صغير بمنطقة ريفية تبعد عن المدينة بنحو عشرين دقيقة. قال إِنه سينتظرها فِي المطار وسيصحبها بسيَّارة ديكابوتيه إِلَى البيت الريفي. تعرف أيضًا أن شركة الطيران هذه موثوق بكفاءتها بشهادة حسام الَّذِي سافر عَلَى طائراتها مئات المرات. كنت فِي الحلم أناديها مِن مكان غير معلوم، لاَ أَنَا عَلَى متن الطَّائِرَة وِلاَ أَنَا خارجها غير أَني أراها بوضوح كأنها صورة فِي فيلم. أتمنى أن يعلو صوتي عَلَى صوت الموتور وأن تلتفت عايدة نحوي لتراني وتنتبه للخطر الَّذِي أحاول تحذيرها منه. لكنها تبتسم فِي اطمئنان وخيالها سارح فِي جناح الطَّائِرَة الَّذِي بدأ يحترق بجوار نافذتها كأنها لاَ تراه، لاَ تريد أن تراه. يخفت صوت الطَّائِرَة فجأة وتختفي صورة عايدة وتحل محلَّها صورة أَسْوِرَة ذهبية تشبه تلك الَّتِي اشتريناها مَعًا بعد مشاهدة فيلم أودري هيبورن. أراها مكبَّرة عشرات المرات وهي تلمع فِي ذراعها المحترقة.

أفتح عينَيَّ وأرى طائرة معلَّقة فِي سقف غرفتي، تظلُّ مشتعلة متوهجة قريبًا من الفراش دون أن تطوله بلهبها، وأظلُّ أحملق إِلَيهَا

بعينين مفتوحتين عَلَى اتساعهما لا أعرف إِن كنت قد خرجتٍ من الحلم أم دخلته من باب آخر. أعرف أن عايدة احترقت مع الطَّائِرَة لكني لا أستطيع أن أبكي وتؤلمني عيناي لفرط الحملقة إِلَى اللَّهَب. أغلقهما حَتَّى يتسنَّى للطائرة أن تسقط، وعندما أعاود فتحهما تكون الطَّائِرَة قد اختفت وتسقط أَسْوِرَة عايدة فِي رنين مكتوم عَلَى أرض الغرفة، تسقط معها أصابع متفحمة تتفتت مَا إِن تلمس الأرض كأنها قشور طلاء قديم.

أقوم من الفراش متثاقلة أجرجر خلفِي أكوامًا من الشحم وذيول نوم مضطرب. أشعر كأن جسدي قد تَرَهَّل فِي الليل وزاد وزنه بدرجة غير معقولة حَتَّى أصبحت تتدلي من جانبيه ثنيات جلد زائد كأنها أذرع أخطبوط. أزيح بقايا حطام الطَّائِرَة من الطريق وأطأ الأَسْوِرَة بقدمَيَّ فتغوص فِي نسيج السجادة وتتحلل. الكوابيس الَّتِي صاحبت فترة الحداد عَلَى عايدة تتلخص دائمًا فِي مشهد موت عنيف، مفاجئ، ليس انتحارًا كما كنت أتوقع لَهَا، وإنما موت مسبَّب، بفعل فاعل. لم أفلح رغم مرور الوقت فِي مقاومة هذا التصوُّر، رغم يقيني أنها ماتت ميتة طبيعية، فِي فراشها، ذات مساء أو ذات فجر، ميتة هادئة سخيفة عاديَّة غير مبرَّرة. رنَّ الْبَوَّاب الجرس عدة مرات فِي أَثْنَاء النَّهَار، وعندما فشلت المحاولة الثانية فِي صباح اليوم التالي اتصل بأسامة عَلَى الهاتف وأخبره أن رسالة هامَّة وصلت أمس ولم يستطِع تسليمها للستّ. كانت الأنوار مُطفَأة وستائر الصالة مُسدَلَة عندما دخلا الشَّقَّة. في غرفة النوم كانت هُنَاك بقايا بيتزا تناولتها قبل يومين وزجاجتان فارغتان من البيرة المستوردة وأعقاب سجائر تتناثر فِي إهمال عَلَى الكومودينو وعلى الأرض بجوار الفراش. كانت عايدة نائمة ولم يفلح أي منهما فِي إيقاظها.

الكوابيس تجعلني أرى موتها كما كان يجب أن يحدث، موتًا دراميًّا يليق بِهَا، قتلاً، خنقًا، حرقًا، ووجه عايدة مبتسم أحيانًا مستكين أحيانًا أخرى وتفاصيل الموت مكبَّرة عشرات المرات مثل صورة قريبة واضحة المعالم. جبهتها مكشوفة تتلقى طلقة نار غادرة، عنقها محتقن بالدماء يرف تحت جلده نبض لن يلبث أن يتوقف، ذراعها محترقة بفعل ألسنة اللهب المندلعة من مصدر واحد لاَ يتغير فِي الحلم، جناح طائرة. كلّ الكوابيس تنتهي بتلك الصور القريبة المجتزَأة لموت عايدة: جبين مثقوب، عنق ملتوٍ، ذراع متفحمة. كلها تشبه الملصقات الَّتِي أعلقها فِي غرفة مكتبي، صور مكبَّرة لنهاية مَا، بِلاَ بداية واضحة، بِلاَ مصدر معلوم، دائرة حبل مشنقة أو نقطة ماء معلقة في الفراغ. أحيانًا كنت أتخيل حادثة الانتحار كأنها حدثت فعلاً، لطالما تحدثت معي ومع آخرين من الشلّة وبخاصة كريم فِي مسألة الانتحار وفي تفكيرها الدائم فِي هذا الاحتمال كلَّمَا ضاقت بِهَا الدُّنْيَا. ولكني فِي قرارة نفسي كنت أعرف بما لاَ يقبل الشَّكّ أنها لن تُقدِم عليه أبدًا، فأنانيتها وشعورها بالاضطهاد الَّذِي أعرب عن نفسه فِي الشهور الأخيرة بشكل مَرَضِيّ كانا يمنعانها من الإقدام عَلَى الانتحار. كانت تتوقع أن آخرين، كل الأغبياء الذين قابلتهم فِي حياتها، هم المعنيُّون بموتها وهم من يتمنَّونه سرًّا فتتأكد ريبتها وتزداد عزلتها. ورُبَّمَا أيضًا كانت تتَمَنَّى أن يقتلها أحدهم لكي يكتمل انتصارها عَلَى كلّ مَن شَكَّك فِي تلك الهواجس أو سخر منها. كنت واحدة من هؤلاء الأغبياء، وفشلت صداقتنا لأني لم أُدرِكْ منذ البداية حجم الكارثة الَّتِي كانت تعيشها عايدة، شعرة النزق والاضطراب الَّتِي كُنَّا نراها وتجتذبنا نحوها مثل المغناطيس لكننا لم نَعِ تمامًا مقدار سيطرتها عَلَى حياتها وتصرفاتها. الشعرة الَّتِي جعلتها بِلاَ مبرر واضح تتصور أن الكلّ

يتآمر ضدها بمن فيهم أَنَا والتي كان حسام سببا فِي تضخُّمها وانفجارها، حَتَّى لو لم يكُن السَّبَب المباشر فِي موتها.

قضيت بصحبة أسامة يومين كاملين فِي إعادة ترتيب أَوْرَاق ولوحات عايدة وتخزين كتبها فِي صناديق استعدادًا لنقلها إِلَى عيادة عادل. كانت هُنَاك ثلاث حقائب كبيرة من الملابس والأحذية وحقائب اليد الَّتِي رفض الأقارب لمسها أو الاستيلاء عليها لأنها كانت فِي نظرهم فاضحة أو غريبة. تعرفت من بينها عَلَى أغراض اشترتها عايدة من مال حسام ولم تلمسها يد. فستان سهرة "أزارو" عليه تيكت المحل، وحقيبة يد "لوي فيتون" فِي كيس من القماش الفاخر مطبوع باسم الماركة الشهيرة، وساعة "رولكس" مهشَّمة فِي علبتها يبدو أن عايدة كسرتها فِي سَورة غضب. اختفت الحُلِيُّ الحقيقيُّ منها والتقليد وظلَّت العلبة الَّتِي كانت تحتفظ فِيهَا عايدة بمصوغاتها فارغة، علبة كرتون بِلاَ قيمة مغطَّاة بقماش مهترئ عليه منمنمات فارسية.

عندما أعلن أسامة عن رغبته فِي التخلُّص من الشَّقَّة بالبيع أو الإيجار، تَبَرَّع عادل بالاحتفاظ بأغراض عايدة فِي غرفة صغيرة مُلحَقة بالعيادة كان يستخدمها مخزنًا. كنت أتخيله أحيانًا جالسًا فِي ظلام الغرفة الصغيرة، بين الصناديق والأكياس السوداء الَّتِي تحمي اللَّوْحَات من الأتربة، مُطرِقًا فِي صمت كأن ذهنه قد خَلاَ من الصور. كان هذا دأبه بعد انتهاء ساعات العمل فِي العيادة، يجلس وحيدًا فِي الغرفة وينصت بذهن شارد إِلَى جلبة وسط المدينة. ثم صارت هذه الغرفة ملاذه الوحيد بعد وفاة عايدة، يحيط نفسه بما تبقي من ذكراها وَلاَ يجرؤ عَلَى فتح صندوق واحد كأنها أمانة ائتمنته عليها عايدة لم يكن من حقه العبث بمحتوياتها. حَتَّى بعد أن تَقَرَّر موعد المعرِض الَّذِي أراد عادل إقامته فِي ذكرى عايدة، لم

يَقْوَ عَلَى فتح صندوق واحد بلاَ رفيق ودعاني أَنَا وأسامة وكريم للقيام بالْمَهَمَّة مَعًا، مَهَمَّة فتح الصناديق واختيار الأَوْرَاق والرسوم واللُّوْحَات الَّتِي تصلح للمعرض.

كان عادل قد قرَّر إِقامة مَعْرِض وحفل تأبين لعايدة عقب وفاتها بأسابيع قليلة وبدأ فعليًّا فِي إجراء بعض الاتصالات بأصدقاء عايدة وزملاء المهنة. منهم مَن تحمَّس للفكرة ومنهم مَن سخر منها ومن بينهم كريم الَّذِي استسخف أن يقيم عادل وهو كاتب فاشل معرضًا لعايدة. صرخ كريم بحِدَّة وهو يقول إِن أعمالها حَتَّى لو كانت جيدة فهي ملك للتاريخ. كان يريد أن يضع عايدة موضع اختبار معتقدًا أن الزمن وحده هُوَ الكفيل بإعتاق العمل أو إهالة التراب عليه إِلَى الأبد. كان كريم يغار عَلَى عايدة ومنها، حَتَّى بعد موتها، وكُنَّا نرَى ذلك ونصمت، فلكلّ واحد مِنَّا علاقة تواطؤ تجمعه بكريم ولم نكن نريد أن نخسر هذه العلاقة. عندما هدأت ثورته، أعلن عن استعداده لمساعدة عادل وأسامة فِي إِقامة المعْرِض. عرفتُ بنِيَّة إِقامة مَعْرِض لعايدة وبالمناقشات الَّتِي دارت بين أفراد الشلَّة بالمصادفة، عادل أشار إِلَى ذلك فِي مَعْرِض الحديث عقب انتهاء مراسم الأربعين. تجاهلت إِقصاءهم المتعمد لِي ولم أظهر لعادل حزني متصورة أن كريم هُوَ السَّبَب فِي هذا الإِقصاء أو أن أسامة شعر بالحرج لأن عايدة اختارت أن تقطع علاقتها بِي قبل موتها. لذلك وافقت بلاَ تردُّد متفهمة أَنِي كنت وما زلت فِي دائرة الْمُقَرَّبِين البعيدة وأنها الفرصة الوحيدة وربَّمَا الأخيرة الَّتِي تسمح لِي بتأكيد مكانتي فِي حَيَاة عايدة. هكذا تبرعت بكتابة بعض النُّصُوص لمصاحبة اللّوْحَات واقترحت عرض فقرات من اليوميَّات بخط عايدة مشاركة مني فِي الاحتفال، ورحَّب الجميع بالفكرة بمن فيهم كريم

الَّذِي اكتفى بكتابة نصّ أدبي طويل عن عايدة وقرأه عَلَى الناس فِي الافتتاح.

فِي نهاية اليوم الثاني من العمل فِي الشَّقَّة، هبط علينا حسام بِلاَ موعد سابق. جاء بعد أن انفضّ المولد، نقر عَلَى الباب نقرات خفيفة وانتظر. عندما فتحتُ لَهُ الباب كنت مُنهَكة وكانت ملابسي متَّسخة قليلاً بفعل الأتربة والأحبار وبقايا عُلَب الألوان. لم أكُن قد تبادلت مع أسامة كلمة واحدة منذ أكثر من ساعتين، ولم تكن لدي رغبة فِي الكَلاَم. أفسحت لحسام الطريق بعد أن تمتم بكلمة تحيَّة مقتضَبة ولم أمدَّ يدي بالسلام مدَّعية أنها متربة. كانت كلّ الدلائل تشير إِلَى أنه تَخَلَّى عن عايدة وأنه كان السَّبَب فِي موتها. لم يهدِني تفكيري إِلَى غير ذلك، وبعد قراءة الفقرات المتفرقة الَّتِي كتبتها عايدة فِي كرَّاس اليوميَّات الرابع تأكدَت ظنوني بشأن حسام ومسؤوليته غير المباشرة عن وفاتها. خرج أسامة من المطبخ حاملاً كوبين من الشاي صنعهما لِي وله، ناولني كوبًا وجلس عَلَى صندوق كبير وأشعل سيجارة. تَجوَّل حسام فِي الشَّقَّة، من غرفة النوم إِلَى غرفة الولد الَّتِي كانت عايدة تستخدمها مكتبًا والتي بات فيها حسام أولى لياليه بعد عودته من السفر. خرج من الغرفة إِلَى الصالة والشرفة الخلفية ثم عاد ليجلس عَلَى تل الصناديق ويفتح الحديث مع أسامة.

جلست عَلَى كليم كالح فِي مواجهتهما وأسندت ظهري إِلَى باب الشرفة المفتوح ورحت أتأملهما مَعًا وهما يتحدثان مثل غريمين فِي معركة بائسة انتهت بالخسارة لكليهما. أسامة يعنِّف حسام عَلَى غيابه عن مراسم العزاء وحسام يبرر غيابه بعدم قدرته عَلَى مواجهة الحزن ويقول إنه يتأثر بالموت بشكل يثير السخرية وإنه لاَ يحب أن يبكي فِي وجود أغراب. سمعته يقول بنبرة صوت عايدة "ممكن تقول إني غبي، لكن خلاص، اللي حصل حصل"، وسمعته يتساءل

عن سببِ اختفاء الأثاث من شَقَّة "إِيدا" ناطقًا الاسم بنفسِ النبرة الرخوة الَّتِي كنت أكرهها كأنه يتحدث عن شخص ثالث لاَ نعرفه. قفزت إِلَى ذهني كلمات حماتي الحانقة عَلَى طبقة عايدة وعلى تحررها وعلى امتهانها الفنَّ أملاً فِي رفع مستواها الاجتماعي ووجدتني أبتسم للمرة الأولى منذ أسابيع، أبتسم لشبح "إِيدا" الغامض الَّذِي تسبب فِي إِغاظة حماتي. لاَ أدري إِن كنت أتفق معها فِي النقمة عَلَى المنتمين الجدد إِلَى طبقة أولاد الأصول أم أتفق مع "إِيدا" فِي لعبة القفز عَلَى الحبال الَّتِي كانت تتقنها وتبرع فِي استخدامها لمصلحتها. وفيما أَنَا سارحة فِي ذكرى عايدة وصوت حماتي يرنُّ فِي أذنَيَّ وبخارِ الشاي يتسلل إِلَى أنفي وَأَنَا أرشف الرشفات الأولى منه، لم أدرِ إِلاَّ وأسامة يصرخ بجنون وذراعه تطوح كوب الشاي فِي الهواء ليسقط غير بعيد عن باب الشرفة ويده تنقض عَلَى حسام باللكمات وحسام مثلي لاَ يصدِّق مَا يجري لَهُ، لكنه يقع عَلَى الأرض مستسلمًا للضرب وقد ألجمته المفاجأة.

حكي لصديق مشترك من قريتهما عن إِدمان عايدة السرقة وعن مبادئ المرض النفسيّ الَّذِي أعلن عن نفسه بوضوح فِي الشهور الأخيرة. اتصل بأسامة عَلَى الهاتف وهدده أنه سيبلغ عنها الشرطة. هذه المرة لم تأخذ كارت الماستركارد فِي غيابه ولم يضبطها فِي محل الزينة تسرق أصابع الروج والآي لاينر. هذه المرة سرقت الباسبور الأجنبي. التقي كريم فِي عيادة عادل وتباحثا فِي كيفية استرداد الباسبور دون مشكلات، واتفقا عَلَى ضرورة ترتيب لقاء فِي بيتها. امتنعت عن الرد عَلَى الهاتف، اختفت يومين، وعندما عادت ذهبت بنفسها إِلَى شَقَّة حسام. أخذ يصرخ بهستيرية ويتهددها بفضيحة أكبر. عيناه الجاحظتان مخيفتان وذراعاه قويتان تمسكان بِهَا، يهزُّها ويدفع بِهَا فوق الوسائد، لكنها تصرخ وترجوه

أن لا يسافر ويتركها وحدها. تقول "أخذت الباسبور لأحتفظ بك" وتتهمه أنه السَّبَب فِي تعاستها ثم تبكي بحرارة وترجوه أن لا يتركها. تبكي لتُنيمَ شكوكه، وتلتصق بِهِ وتقبِّله لتهدأ ثورته. تفتح أزرار قميصها وتتسلل إِلَى حضنه، وهو لاَ يدرك أنها تقايضه، تلعب معه لعبة حَيَاة أو موت، تُسقِط عن جسدها أوهام الحب واحدًا تلو الآخر مثل أثواب سالومي السبعة. يدرك فقط أنها مجنونة ومريضة ويهدِّدها أنه سيُبلِغ الشرطة. لكنها تتشبث بذراعه، تأخذ يده وتدسُّها تحت الجيبة، تدعوه أن يلمسها بصوت مبحوح ولكنة لاَ تُخطِئها أذناه. يتحول الغضب سريعًا إِلَى طاقة عنف ويأتيها من الخلف وهو يسبُّها بأقبح الشتائم، تتأوه وتصرخ من الألم لكنها تلتفت وتمتص شفتيه ثم تتلوى وتنام عَلَى ظهرها وتهبط تحته مثل أفعى، ترفع رأسها وتقبِّله بين عينيه وعلى صدره وتستسلم ليديه تعتصران حلمتيها ولطعم العسل يتحول إِلَى مرارة فِي حلقها ولخواره وهو يفرغ منها مثله مثل آخرين استسلمت لهياجهم من قبل. ينهدّ جسده بجوارها ويلعنها، يتمدد جسدها مُنهَكًا بجواره عاجزًا عن الحركة. لم يسألها عن الباسبور ثانية، انهارت قواه وظلَّ ممدَّدًا عَلَى ظهره زمنًا ثم نام. أعادت إِليه الباسبور فِي اليوم التَّالِي، فتحَته عند منتصفه وتركته ينزلق تحت باب الشقَّة ثم انقطعت عن زيارته.

لم يكُن حُبًّا، قالت فِي مَا بعد لأسامة، كان ولعًا حارقًا، رغبة فِي استعادة براءة الزمن الفائت، ملء الفراغ الَّذِي خلَّفَته سنوات الجرف. صدقها أسامة، ربت عَلَى جروحها، ووعد باصطحابها إِلَى الطَّبِيب، هذه المرة بناءً عَلَى طلبها. فِي عيادة الطَّبِيب سمعها تقول إِنها منذ وُلدت تنشِب أظافرها فِي كل مَن حولها لتحمي نفسها وعندما ترى الدماء تسيل تشعر أنها دماؤها هِيَ. منذ ولدَتها أمها وهي ضحيَّة، لاَ تستحق الظُّلم. وقالت إِنها تعرف يقينًا أنها الأذكى.

ثم قالت "اللعنة عليهم جميعًا، لاَ أحد يفهم". أسامة كان يعرف ويكتم السِّرّ. وحسام لم يكن ملَكًا ولم يكُن حبيب العمر كما تمنت. لم يكتفِ بفضح العيوب ونكْء الجراح الَّتِي حاولت تبريرها وتضميدها، بل كشف عن عمد عن زياراتها المتكررة للطبيب النفسي وأثبت بالبرهان القاطع أنه عَلَى حق وأنها كائن كُتب عليه أن يعيش وحيدًا منبوذًا. أصرَّ الطَّبِيب عَلَى علاجها بالأدوية واحتجازها فِي المستشفى الخاصّ عدة أيام، وجاءت الضربة القاضية عندما زارها كريم وعادل وكانت خارجة لتوِّها من جلسة علاج بالكهرباء. فضحها وسط أصدقائها الْمُقَرَّبِين وسارع بتثبيت الوقائع وانهارت قواها فِي مواجهته.

فهمتُ من حديث أسامة وحسام أنها قرَّرَت قطع علاقتها بِي بعد قضاء عدة أيام فِي مستشفى الأمراض النفسية والعصبية. تصورَتِ أنِّي لم أزرها رغم علمي باحتجازها هُنَاك عدَّة أيام، قرَّرَت أني لا أستحق صداقتها. والحقيقة أن أحدًا منهم لم يتصل بِي لإبلاغي بمرضها. شرحت لَهُما ذلك بأسى ثم نزل عَلَيَّ صمت وحيرة لم أستطع التخلص منهما عَلَى الفور واستغرقتني الأفكار حتى رأيت حسام يشير برأسه ناحيتي وَأَنَا أجلس شاردة الذهن بجوار باب الشرفة المفتوح ويقول إني لم أستحق أن تلعب بِي وتستغل طيبتي واحدة مثل عايدة. لم أسمعه وهو يقول بتشفٍ: مخبولة بنت الحرام... الله يرحمها. لم يصل إِلَى أذني سوي جملة "الله يرحمها"، ولم أصدق أن ينقضَّ أسامة عَلَى حسام لكمًا وضربًا لأنه يطلب الرحمة لعايدة. عندما نجحتُ فِي فضّ الاشتباك بينهما وخرج حسام من بيت عايدة بِلاَ رجعة، حكى لِي أسامة بالتفصيل مَا قيل وما كان وأنهى حديثه بجملة ظلَّت ترنُّ فِي أذنَيَّ زمنًا: لم تَمُتْ بسبب هذا الحقير، ماتت بقرار ذاتي. وجدتني أبكي بحرقة بعد أن

اكتملت فِي ذهني ملابسات الأشهُر الأخِيرة فِي حيَاة عايدة. وجدتُني وسط بكائِي وغضبي ألعن غباء عايدة الَّذِي جعلها تثق بحسام وألعن سذاجتي الَّتِي جعلتني أتوق إِلَى صداقة عايدة وأضحك من نفسى في الحالتين لأني صرت مثلها، ألعن الغباء وأكفر بالصداقة.

(١٣)

عادت الأمور إِلَى سابق عهدها بعد وفاة عايدة. إلاَّ أنِّي لم أعُد أرى حياتي كما تعودت أن أراها. مرَّت عليها عايدة مثل طوفان أو زوبعة وعندما هدأت العاصفة باخت حياتي أو بهتت، زال طلاؤها وبانت من تحته بثور وثقوب وفراغات. كيف حدث هذا؟ ومتى؟ لاَ يهمّ. المهمُّ أن مشوار الصداقة ومحاولات رأب الصدوع الَّتِي صاحبته شجَّعاني عَلَى إتمام اليوميَّات عَلَى أمل نشرها. اكتشفت فِي أثْنَاءِ الكتابة أن مَا جذبني إِلَى الدوران فِي فلك عايدة لم يكُن فضولاً، كان شيئًا أقوى من مجرَّد الرَّغبة فِي المعرفة، أشدَّ من مجرَّد الاحتياج إِلَى صديقة. مَا ربطني بِهَا وبالشِّلَّة كان أشبه بالبحث عن ملاذ مِن نفسي، بعيدًا عن نفسي، بعيدًا عمَّا كنت أعتبره قاموس الأخلاق والقيم الثابتة ولم يجلب لِي السعادة الَّتِي كنت أتمناها. بفضل عايدة انفتحت عيناي عَلَى اتساعهما، ولم يعد من النظر مهرب: عايدة وحياتها من ناحية، ونفسي وحياتي من ناحية أخرى، متوازيان من الفشل وعدم الرضا.

دوَّنتُ هذه الأفكار فِي فايل عايدة عَلَى الكمبيوتر كأنها امتداد طبيعي لليوميَّات. أسخرِ أحيانًا من نفسي حين أقرؤها بعينَيَّ، وأراها بديهية حين أقرؤها بعيني عايدة. أشعر أحيانًا أنها غير مترابطة، بِلاَ معنى، خالية من الدراما، لكنِّي أعود وأقرؤها كأن عايدة هِيَ صاحبتها فأراها متَّسِقَة عميقة حيَّة. أتركها تختمر وأعود إليها من حين إِلَى حين كأنِّي أقرؤها بعين جديدة كلَّ مرة، كأن صاحبتها هِيَ

عايدة لاَ أنَا، وأشكُ فِي جميع الأحوالِ فِي قيمتها الأدبيَّة لأن معيار القيمة مستمَدٌّ من عايدة نفسها ومن شلّتها.

بعد افتتاح المعرِض التأبيني الَّذِي أقمناه لعايدة، التأم شملنا من جديد. داومت عَلَى قضاء ساعة أو ساعتين كلَّ يوم فِي قاعة العرض كأني صاحبة المعرِض. أحيانًا ألتقي أسامة عَلَى غير موعد ونقضي الوقت فِي الدردشة وتأمُّل اللَّوْحَات ومقارنتها بالنصوص المكتوبة، وأحيانًا أخرى يلحق بنا عادل ويقضي معنا نصف ساعة قبل موعد العيادة، يتصفح فِي كل مرة يأتي فِيهَا بروشور المعرِض ويقرأُ المرةَ تلوَ الأخرى نصَّ التقديم الَّذِي كتبه كريم، ويتأفف من جملة تبدو لَهُ سطحية أو يتعجب من تعبير يبدو متحذلقًا.

عندما أكون وحدي في المعرِض، أتأمَّل لوحات ورسوم وأشعار عايدة بعين مختلفة، خصوصًا سلسة الاسكتشات الَّتِي تحمل عنوان "القبلة" والتي أعطيناها ترقيمًا تصاعديًّا من واحد إِلَى ثلاثة عشر. كانت الاسكتشات مرسومة بالحبر الأسود والفحم تمثل مشهد قبلة بين رجل وامرأة، بدا لنا أحيانًا من ملامح الرجل المرسوم أن عايدة رسمت حسام، وفي لوحات أخرى كان الرجل مختزَلاً لاَ يظهر منه سوى جزء من شعر الرأس والعنق. اللوحة الوسطي فِي الترتيب، رقم سبعة، كانت بورتريهًا شخصيًّا لعايذة وهي تقبِّل نفسها فِي مرآة. مَا يسبقها من رسوم تظهر فِيهِ تفاصيل للوجهين فقط، وما يليها تظهر فِيهِ تفاصيل من الجسدين المتعانقين فِي اكتمالهما. ضمَّ هذا القسم من المعرِض ملاحظات من كتابات عايدة عن القبلة فِي لوحات كليمت وبيكاسو وفي تماثيل رودان وبرانكوزي وغيرهم من الفنانين المعاصرين، كما ضمَّ فقرة طويلة من رسالة القبلة طُبعت عَلَى ورق مُقَوًّى بخط عايدة مكبَّرًا عشرات المرَّات.

كأن موت عايدة أضفى عَلَى رسومها صفة الاكتمال. أصبحت أعمالاً فنية مشروعة، ممهورة بختم الثقة، متجددة الصلاحية. كلّ واحد منها يُخفِي سِرًّا يِجب عَلَى الناس من الآن فصاعدًا أن يكتشفوه، أن يجدوا فِي كل لوحة فِي كلِّ لون فِي كل خطّ معنًى خفيًّا لم يلتفت إِليه أحد من قبل، معنًى يؤكد موهبة عايدة المُهدَرة ويثير لدى المتفرج شعورًا بالأسى لأن صاحبته غابت عن الدُّنْيَا. الأسى عَلَى موت عايدة جعل البعض يرفعها إِلَى مصاف الفنانين العظماء والبعض الآخر يسخر من ضحالة الأعمال المعروضة وهم يؤكدون بهزَّة رأس أن عايدة ليست سوى فنَّانة مُحبَطة وأن اسمها لن يصمد فِي وجه الزمن. لم أكُن مهتمَّة بفهم الأبعاد الجمالية الَّتِي ظلّ الناس يتناقشون حولها كلَّمَا سنحت لهم فرصة زيارة المعْرِض، كنت أنصِتُ وأناقش لأدرأ عن نفسي تهمة ظلّت ملتصقة بِي بعد أن انقطعتُ عن رؤية عايدة، تهمة صوَّرَتها لَهَا هواجس الاضطهاد عقب انفصالها عن حسام، تهمة الغباء. كان حضوري اليومي تأكيدًا لرغبتي الصادقة فِي الفهم، وكنت أتخيل عايدة وهي تسخر من تصميمي عَلَى الفهم وتعتبره دليلاً آخر عَلَى ضحالة تفكيري وحدود مشاعري.

مضت عدة أسابيع عَلَى انتهاء المعْرِض وذهب كلٌّ منَّا لحاله وزادت وحشتي بشكل غريب، كأن البيت أصبح سِجنًا وزوجي هُوَ السَّجَّان. طاردني نفس الحلم، حلم البيت الَّذِي يشكل نصف دائرة أحاول الخروج منها بِلاَ جَدْوَى. وداومت عايدة عَلَى زيارتي فِي الحلم بتنويعات مختلفة، مرَّة تُسِرُّ إِلَيَّ بكلمات مُبهَمة أنساها عند الاستيقاظ، ومرة تصمت وتنام عَلَى الفراش بملابس السفر. حَتَّى كان ذلك الصباح الَّذِي صحوت فِيهِ عَلَى خاطر عجيب لاحقني معظم النَّهَار وجزءًا من الليل وأربك نومي الَّذِي كان مرتبكًا عَلَى

أي حال. خاطر تحدثْتُ فِيهِ مع زوجي في مساء اليوم التالي ورأيتَه ثائرا عَلَيَّ كمَا لم يثُر عَلَيَّ من قبل، ورأيته يصفع الباب بقدمه ويخرج من البيتِ ورأيته يعود قبل الفجرِ مُنهكًا وينام عَلَى الكنبة فِي الصالة. كارثة أنِّي فكرت فِي شراء شقَّة أسامة؟! سألني كأن الفكرة أصابته بفقدان توازن مفاجئ: تقصدي شقَّة عايدة؟ وأجبته بالإِيجاب موضِّحة بنبرة أردتها أن تبدو طبيعِية أن الشقَّة فِي الأصل ملك أسامة وأنه تركها لعايدة بعد أن طلِّقت من زوجها الثاني. صمت زوجي ثم هبَّ من مكانه كاظمًا غيظه واتجه نحو المطبخ ثم عاد وصرخ فِي وجهي مُعلِنًا أنِّي مصابة بحالة عصبية وأنِّي أحتاج إِلَى علاج وأنِّي لاَ أعامله باعتباره رجلاً وأنِّي أُهِينُ كرامته بهذا الكَلاَم الفارغ وأني أكذب عليه وأنه لم يعُد يعرفني ولم يعُد يصدِّقني ولم يعُد يثق بِحُبِّي لَهُ ولم يعُد يُطِيق البقاء فِي البيت بسببي، ثم خرج. بعد عودته، لم ينقطع الحديث بيننا أسبوعين كاملين، لعبة قط وفأر يستجوبني فِيهَا وقد زادت شكوكه وأحرقته الغيرة، وأجيبه باستفاضة لكنِّي لاَ أشفي غليله. لاَ يفهم لِمَاذَا أحتاج إِلَى شقَّة تخصُّني كأنِّي أريد الانفصال عَنْهُ وعن الولد، ولاَ أنجح فِي تبرير هذا الاحتياج مهما حاولت.

دبرت جزءًا من المال، وتنازل أسامة عن أخذ المبلغ كاملاً وأعطاني مهلة سنتين لتسديد الثمن المتبقي. أعدت طلاء الصالة وغرفة النوم بنفس الألوان تقريبًا ووضعت قطعًا بسيطة من الأثاث ووسائد كثيرة عَلَى الأرض ونقلت مكتبي وجزءًا من كتبي إِلَى الغرفة الثانية وعلَّقتُ عَلَى الحوائط بعض الملصقات ورتَّبْت المطبخ وأعدت إِلَى الشرفة كَرَاسِيَّ البامبو وأُصُصَ الريحان والياسمين البلدي. ساعدني عادل عندما لاحظ غياب زوجي وسأل: لسة زعلان؟ وأجبته: أبدًا أبدًا، خالص. لم يصدِّقني عادل كما لم

يصدقني أسامة حين أخبرتهما أنِّي سأقضي النَّهار فِي الشَّقَّة وأعود إِلَى البيت قبل عودة زوجي من العمل كلّ يوم. لكنهما كانا سعيدَين بفتح الشَّقَّة من جديد، يطرقان الباب كلّ يومين ويقضيان ربع ساعة فِي التحدُّث معي عَلَى العتبة مدَّعِيَيْن أن وراءهما شغلاً كثيرًا. ثم أصبح كلّ واحد منهما يأتي عَلَى حِدَة. يدخل المطبخ، يصنع كوب شاي ويجلس مسترخيًا عَلَى الكليم، يدخن أو يبحلق فِي الحيطان. وحده كريم احتفظ بمسافة بعيدًا عن الشِّلَّة، رفض أن أكون وريثة عايدة بعد موتها وأن يكون بيتي مكانًا لِلَمِّ شملنا. والغريب أن زوج عايدة الثاني جاء لزيارتي أيضًا واصطحب الولد. رحَّبْتُ بهما غير مصدِّقة وفهمت أن الولد يحنُّ إِلَى بيت أُمِّه، إِلَى رائحة أُمِّه. لم يبكِ كما كنت أتوقع، دخل المطبخ وأخذ ثمرة فاكهة من الثلاَّجة وعاد ليجلس بيننا وينصت إِلَى حديثنا كأنه يجلس فِي بيته، بين أُمِّه وأبيه. ثم داوم الولد عَلَى زيارتي، لا يتحدث كثيرًا، ويخرج دون علم مني، وعندما أُطِلُّ من شرفة الدور الثالث أراه يدخل سيَّارة أبيه وينطلقان فِي اتجاه الشارع الكبير.

انتهيت فِي زمن وجيز من ترتيب اليوميَّات ترتيبًا تتابعيًّا وبلغ عداد الصفحات عَلَى الكمبيوتر مَا يقرب من مئة صفحة، معظمها بقلم عايدة بالإضافة إِلَى ما كتبته من خيالي ومن واقع معرفتي بِهَا وبالأحداث المشار إِلَيها فِي اليوميَّات. عكفت عَلَى هذا العمل نحو شهرين، رفض زوجي فِي أثنائهما زيارة الشَّقَّة وأصرَّ أن ألتزم بشرط العودة إِلَى البيت كلّ يوم قبل عودته من الجامعة. انتظم هُوَ نفسه فِي دخول البيت فِي موعد ثابت يوميًّا بعد أن كان يتلكَّأ بعد ساعات العمل ويبرِّر تأخره بنزهة مع صديق أو زيارة أُمِّه. كان يضعني فِي اختبار، يتوقع أن أتراجع عن وهم الاستقلال عَنْهُ عندما أكتشف بنفسي صعوبة الجمع بين بيتين. لكني نجحت فِي إثبات

العكس وهدأت الأمور نسبيًّا بيننا عندما تَبَيَّنَ لَهُ أن الشَّقَّة الجديدة لاَ تعطِّلني عن واجباتي الأسرية نحوه أو نحو الولد. واليوم بعد مرور عام كامل عَلَى انتقالِي للعيش فِي شَقَّة عايدة، وبعد استقرار العلاقة بيني وبين أفراد الشلَّة، أشعر أحيانًا بوَحدة لاَ يُعِينُنِي عليها سوى مراجعة اليوميَّات استعدادًا لنشرها.

أطلعت كريم عَلَى سِرِّ اليوميَّات بعد أن تَأَكَّد لِي أنه لن يبوح بهِ للآخرين. أردت أن أُرِيَهُ النص وأن يقرأه ويوافق عليه قبل النشر. كانت سلطته الأدبيَّة طاغية وكنت أثق برأيه وأنتظره كأنه سيف جلاَّد. بعد أن جمعت بيننا عايدة واليوميات لم يعُد مُمْكِنًا أن نفترق، وأصبحت زياراته للشَقَّة كُلَّمَا تَأَكَّدَ أني وحيدة وأنه يستطيع أن يستأثر بِي لنفسه ساعة أو ساعتين مصدر بهجة وشَوق من جانبي. كان يحدِّثني عن خوفه من الموت وعن تعلُّقه الْمَرَضِيِّ بأُمِّه، عن روايات قرأها ولم تعجبه وأخرى قرأها وأعاد قراءتها عشرات المرات لعلَّه يدرك السِّرَّ وراء عبقرية كاتبها، عن مشروع روايته الجديدة عن رجل يهوى القراءة فِي القطارات وعن خوفه أن يشبه هذا المشروع كتابات آخرين. حلَلْتُ محلَّ عايدة بالنسبة إِلَى كريم وحلَّ هُوَ محلَّها بالنسبة إِلَيَّ ولم يعُد من غِنًى عن لقاءاتنا، بحُجَّة اليوميَّات أو بلا حُجَّة. كنت أدرك أني فرصة جديدة من الفرص الَّتِي ينتهزها كريم ويستغلُّها لخدمته، سواء باستخدام الشَّقَّة ملاذًا لَهُ من زوجته، أو باستخدامي بديلاً لعايدة. لكني اندفعت نحوه كأنِّي سيَّارة بِلاَ فرامل وكأنه منحدَر خطِر، أريد أن أعرفه أكثر، وأن أنقذه من انتهازيته لو استطعت.

قبل انتهاء العام، عادت عايدة للظهور فِي الشَّقَّة، وكنت أتوقع عودتها وأنتظرها. كانت الدليل الدامغ عَلَى صداقتنا، عَلَى التصاقي بِهَا واحتياجها إِلَيَّ. عرفت من الآخرين أنها لم تظهر لأي منهم،

وأنهم يتذكرونها بحسرة لكن ظهورها بالنسبة لهم أمر شبه مستحيل. عادل بكى قليلاً وهو يعترف لِي أنه لم يحتفظ بصورة واحدة لَهُ مع عايدة، وقال بمرارة إنه يكاد ينسى بعض ملامحها، الأنف مثلاً. ابتسمت لهذا الخاطر وتذكرت أن أنف عايدة كان يثير اهتمامي أيضًا. أسامة سخر من فكرة ظهورها برمتها، وشعر بارتياح وهو يبيع الشقَّة ويراني أغيِّر ألوان الحيطان وترتيب الأثاث. فِي البداية كانت تترك لِي رسالة عَلَى الأنسر ماشين، مجرَّد صوت أنفاس منتظمة، كأنها نائمة، أو وشيش أمواج كأنها تتصل من الشاليه. ثم راحت تترك عند باب الشقَّة أشياء تعرف أني سأفهم معناها: شمعة عَلَى هيئة قلب أجدها عند خروجي من البيت آخر النَّهَار، ورقة مطوية بعناية وموضوعة بين ضلفتي الباب تسقط بخفة عند فتحه أجد بداخلها صورة لطفل حديث الولادة نائم أو ميت. وفي الأيام الأخيرة قررت أن تغيِّر أماكن الوسائد فِي الصالة وأن تضع الكليم فِي خط مائل. كانت تلعب، أو تعتذر عمَّا فعلت، وكنت أفرح كلَّمَا جاءت منها إشارة. مرَّة سألت كريم، أنكر أن تكون لَهُ يد فِي تلك الألعاب واعتبرها سخيفة. لكنه تجهم بعد قليل وراح يتفرس فِي وجهي كأنما رأى عَلَى سطحه طيف وجه عايدة. بعد زمن عاد وسألني إن كنت أخاف من الوحدة، وعندما أجبته بالإيجاب قال وهو يضمُّني إلَى صدره بلاَ استئذان: مش كان نفسك تخرجي للعالَم؟ خلاص يَا بيبي... ريلاكس!

جلست أنا على الطرف الأقصى من كريم، وجلست بيننا عايدة، رأسها على كتف أسامة وساقاها ملتصقتان بساقي حسام كأنها همزة وصل بينهما. الهواء رطب والريح يطير الموج صانعا ما يشبه رغوة الصابون بعرض الشاطيء وضوء الصبح ينعكس على الرمال الممتدة بين الشاليه وبين البحر يلونها بالبني والأحمر والرمادي وصوتي يعلو لججأة بالغناء، أكابيللا، صوت منفرد بلا موسيقى تصاحبه، وحيد ومنفلت ورائق.

عندما أكف عن الغناء، يرفع كريم كأسه في صحتي، أنحني للأمام قليلا لأراه وألمح في ابتسامته شيئا صافيا لم ألمحه من قبل، شيئا يقربني منه. هل تقودني ابتسامته إلى حافة أسقط منها أم تقودني إلى شاطيء أرسو عليه؟ لا أعرف بعد، الموج يعرف، وخطوط الصبح التي تصل الأرض بالسماء ترسم في الأفق البعيد صورة غائمة لحورية بحر تنتظر على صخرة. تخيلت أني تلك الحورية وأني تنازلت عن صوتي العذب لجنية البحر في مقابل ساقين بشريتين أطلقهما قريبا للريح.



دار شرقيات